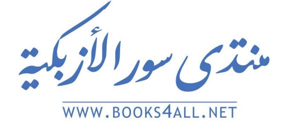
الإعجاز العلمى للقرآن الكريم

فى علم النفس و التحليل النفسى

د . محمد رمضان





الإعجاز العلمي للقرآن الكريم
في علم النفس والتحليل النفسي

الطبعـــة الأولى

١٤٢٧ هـ ـ يناير ٢٠٠٦ م



٩ شارع السعادة . ابراج عثمان . روكسى. القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

الإعجاز العلمى للقرآن الكريم
فى علم النفس والتحليل النفسى

الأستاذ الدكتور
محمد رمضان محمد



إهـداء

إلى زوجتى العزيزة الغالية، إلى أحب وأعز إنسانة إلى قلبى، رفيقة الحياة والكفاح، وإلى أولادى الأحباء، أهدى إليهم هذا العمل، راجيًا من المولى عز وجل أن يديم علينا الصحة والسعادة، وأن يديم علينا نعمة الإيمان.

شكر وتقدير

إلى أستاذى الجليل، العالم المتميّز المعطاء . الذى أعطاه الله سبحانه علمًا من علمه، ونورًا من نوره، إلى أستاذ الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فى العصر الحديث، إلى أستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور زغلول النجار حفظه الله ورعاه، وجعله ذخرًا للأمة الإسلامية والعربية، والذى كان له بفضل توجيهاته وإرشاداته، وغزارة علمه وقلبه الكبير، وعطائه الفيّاض، أكبر الأثر فى إخراج هذا الكتاب، ونشكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن أهدانا هذا العالمَ الجليل، فقد كتَب وما زال يكتب أعظم ما كُتبَ فى الإعجاز العلمى للقرآن الكريم .

نسأل الله العلىّ الكبير أن يجزى أستاذنا الجليل . . الأستاذ الدكتور زغلول النجار خير الجزاء، وأن يديم عليه نعمة الصحة والعافية، وأن يوفقه لخدمة دينه وقرآنه وبيان معجزاته .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

أ. د. محمد رمضان محمد

تقـديم

الحمد لله الذى هَدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرحمة المُهداة والنعمة المُسداة، وعلى آله وصحبه الأئمة الهُداة.

وبعد:

فقد تم - بعون الله سبحانه وتعالى وكمال هدايته - كتابة هذا العمل المتواضع فى مجال الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فى مجال علم النفس والتحليل النفسى، آملين أن نحصل على قطوف من رياض القرآن، تهدينا لفهم النفس الإنسانية؛ إذ بمعرفة علوم القرآن يصل الإنسان إلى معرفة ذاته وكُنه نفسه، وتتفتح له كنوز أسرار النفس.

وعلى الرغم من أنى أعمل أستاذًا لعلم النفس فى جامعة عين شمس، ومضى على حصولى على الأستاذية ثلاثة عشر عامًا، ألّفت فيها عشرات الكتب والأبحاث، التى حصل بعضها على جوائز تقديرية، وأشرفت على عشرات الرسائل للماجستير والدكتوراه فى علم النفس، إلا أننى لم أفهم النفس، إلا بالرجوع إلى خالق النفس سبحانه وتعالى، وإلى القرآن الكريم المرجع الأصلى لكل العلوم.

فهذه دراسة للنفس من نوع جديد، لم نعتمد فيها على مصادر من العباد، بل اعتمدنا فيها على مصدر من خالق العباد، سبحانهُ وتعالى - القرآن الكريم -، رجعنا إلى المرجع الأصلى إلى مرجعية الخالق سبحانهُ وتعالى.

ولقد تأكدتُ بعد ثلاثة وثلاثين عامًا من الاشتغال بالنفس ودراسة النفس، أنه لا سبيل لفهم النفس، إلا بالرجوع إلى خالق النفس وقرآنه الكريم.

ففى القرآن الكريم كنوزٌ لفهم النفس، وعلينا نحن - علماء النفس - الغوص فى بحور القرآن، باحثين عن تلك الكنوز.

ووجدت فى علوم القرآن الكريم، ما يريح النفس ويشرح الصدر وينير البصيرة؛ إذ هى علوم ليست ككل العلوم، وإنما أشملها وأعمقها وأجلها ومصدرها وأمها.

فيقول الحق سبحانهُ وتعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. فالحياة مع القرآن، هى الحياة الآمنة المطمئنة، والقُرب من آياته هو القُرب من أسرار الوجود وروح الإنسان، والغوْص فى بحوره، هو الذى يوصلنا إلى كنوزه ومعرفة أسرار النفس.

القرآن الكريم، الذى سمعته الجن، فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

القرآن الكريم الذى تخشع لعظمته الجبال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

القرآن الكريم الذى هو الروح للكون، إنسه وجنّه، وحيوانه ونباته، ساكنه ومتحركه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى: ٥٢].

القرآن الكريم الذى فيه وبه النجاةُ، ولا نجاةَ بسواه، فهو الذى أخرج الناس من الظلمات إلى النور، يقول الحق سبحانهُ وتعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)﴾ [إبراهيم: ١].

وحبًا وطمعًا للوصول إلى النور فى عملنا، اعتمدنا على القرآن الكريم كعلم ربانى، يهدينا إلى فهم النفس ويخرجنا من الظلمات إلى النور.

يتكون هذا الكتاب والمُعَنْون «**الإعجازُ العلمى للقرآن الكريم فى علم النفس والتحليل النفسى**» من سبعة فصول:

ـ **الفصل الأول**: بعنوان «**القرآن الكريم والعلاج النفسى**» وتناول الموضوعات الآتية: (العلاج النفسى والطريق إلى هداية النفس والصراع بين ذاتوات النفس، واتخاذ القرار بين الروح والعقل).

- **أما الفصل الثانى: فبعنوان «الإيمان والإلحاد»** تناولنا فيه الرد على الملحدين من زاوية التحليل النفسى، وزاوية الفلسفة الحسية المادية التى انطلقوا منها فى إلحادهم، وأخيراً الرد على الملحدين بآيات القرآن الكريم.

- **والفصل الثالث: بعنوان «القرآن الكريم وتصنيف الاضطرابات النفسية»** تناولنا فيه تصنيف وأساس الاضطرابات النفسية الصادر من منظمة الصحة العالمية، وكيفية استخدام الرمزية فى تفسير أحلام نبى الله يوسف ﷺ، ثم عرضنا للإحساس فى علم النفس والقرآن، واستعرضنا كيف أن المرض النفسى اختيار، والصحة النفسية اختيار.

- **الفصل الرابع: بعنوان «الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فى خلق الإنسان»** استعرضنا فيه عظمة الخالق سبحانه فى تصوير الجنين داخل رحم الأم، وعرضنا فيه بعد ذلك، حكم جريمة الزِّنا: فى القرآن، والقانون الجنائى، وعلم الضحية، وعلم التشريح.

- **أما الفصل الخامس: فكان بعنوان «الصحة النفسية والقرآن الكريم»** تناولنا فيه السارية وأسبقية السمع عن البصر، وكيف أن الاكتئاب هو الحسرات، وما هى طرق العلاج.

- **أما الفصل السادس:** فتناول صفات الإنسان فى علم النفس والقرآن الكريم، والإيمان هو إيمان النفس والعقل، لا إكراه فى الدين، وأخيراً عزة النفس فى الإيمان بالله.

- **أما الفصل السابع: فهو بعنوان: «القرآن الكريم وأثره على إيمان القلوب السوية»**. ويتناول: أولية القلب على السمع فى الإيمان بالله.

أرجو من اللّه - سبحانه وتعالى - الهداية والتوفيق فى كل ما أكتب، فسبحانهُ وتعالى صاحبُ الفضل والمنّة، وما كتبتُه هنا هو منةٌ من اللّه سبحانهُ، ما كنت قد وصلت إليها إلا بفضله سبحانهُ، وما توفيقى إلا باللّه عليه توكلت وإليه أنيب.

الفصل الأول

القرآن الكريم والعلاج النفسى

١ ــ العلاج النفسى والطريق إلى هداية النفس.

٢ ــ تكليف النفس بأكثر من وسعها، وعلاقة ذلك بالاكتئاب.

٣ ــ الصراع بين ذاتوات النفس البشرية فى القرآن الكريم وعلم النفس.

٤ ــ النفاق كمرض نفسى (الفرق بين القول والعمل فى القرآن).

٥ ــ من الذى يتخذ القرار، الروح أم العقل؟

٦ ــ الروح هى المادة الحافظة للجسد؟

٧ ــ القرآن والعلاج النفسى للمدمنين.

(١)

العلاج النفسى والطريق إلى هداية النفس

تهدف جميع طرق العلاج النفسى، بمختلف مدارسها الثلاث، والتى هى:

١ ـ مدرسة العلاج النفسى التحليلى.

٢ ـ العلاج النفسى السلوكى.

٣ ـ العلاج النفسى المعرفى.

تهدف إلى إعادة السوية إلى النفس المضطربة، وتعيد لها توافقها المفقود، تعيد لها الثقة فى الذات، القدرة على اتخاذ القرار. وسبيلها فى العلاج هو علاج أسباب المرض، حتى تختفى الأعراض، فالعلاج النفسى الناجح هو علاج سبب المرض وليس عرض المرض، ولقد أكدت لنا منظمة الصحة العالمية أن أساس المرض النفسى هو الخوف والحزن، وذلك فى التقسيم العاشر، الصادر من صيف عام ١٩٩٢م.

وإذا كان التقسيم العالمى للاضطرابات النفسية أكد لنا أن الخوف والحزن هما سببا المرض النفسى عام ١٩٩٢م؛ فقد أكد ذلك القرآن الكريم في سورة فصلت منذ أربعة عشر قرنًا، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا ﴾ [فصلت: ٣٠].

أى: أن الإيمان والاستقامة، يُبعدنا عن الخوف والحزن، والخوف والحزن هما سبب الأمراض النفسية، فالإيمان والاستقامة هنا هما العلاج النفسى، إذن فالقرآن الكريم شفاء للنفس؛ وهو طريق هداية للنفس وإعادة الثقة لها، وعندما تشفى الروح، يشفى الجسد، فالكثير من الأمراض العضوية يكون لها أسباب نفسية، فالأمراض

العضوية مثل قرحة المعدة والتهاب القولون وارتفاع ضغط الدم والثعلبة، واضطرابات المعدة، والصداع، والغثيان والقيء الهستيرى، أو بعض الآلام الهستيرية مثل المصران العصبى لها أسبابها النفسية القوية، بل إن العلاج الفعال لهذه الأمراض العضوية هو العلاج النفسى، وتسمى هذه الأمراض: الأمراض العضوية النفسية؛ أى: تأخذ شكلاً عضويًا ويكون سببها نفسيًا.

- ولكن هل المرض النفسى اختيار؟

الإجابة: نعم، المرض النفسى اختيار، فأحد أشهر الطرق العلاجية فى علم النفس - وهو العلاج النفسى الوجودى - يؤكد ذلك؛ أى: المرض النفسى اختيار وحتى العلاج النفسى الوجودى، إنما يضع المريض فى رحلة العلاج بين عدة اختيارات، يختار المريض منها الاختيار المريح له نفسيًا، ويقتصر دور المعالج على إنارة كل الاختيارات له، ولكن المريض هو الذى يختار فى النهاية، وعليه أن يتحمل المسئولية، وإذا كان العلاج الوجودى قد أكد ذلك فى القرن العشرين، فإن القرآن الكريم أكد أن العلاج النفسى اختيار منذ أربعة عشر قرنًا، فيقول عزَّ من قائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾

[الشمس: ٧ - ١٠].

فلقد جاء اختيار المرض أو الصحة، وتحمل مسئولية الاختيار فى القرآن الكريم، قبل اكتشاف علماء الطب النفسى وعلماء النفس لذلك.

أى: أن الإنسان له الحرية فى الاختيار، وعليه المسئولية كذلك، ويقول الحق سبحانه فى ذلك: ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥)﴾

[القيامة: ١٤، ١٥].

فهنا تأكيد مرة أخرى على مسئولية الإنسان فى اختياراته.

وعن اختيار الدنيا فقط، وإهمال الآخرة، يقول الحق سبحانهُ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (٢١)﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

ثم يؤكد المولى - جلّ وعلا - نتيجة الاختيار في الآية التالية مباشرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾

[القيامة: ٢٢ - ٢٥].

ثم تظهر مسئولية الاختيار والتى أكد عليها العلاج النفسى الوجودى فى هذه الآية: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾ [القيامة: ٣٦].

وكذلك فى هذه الآيات: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥)﴾ [الانفطار: ٥].
﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [الزمر: ٧٠].
﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢)﴾ [الجاثية: ٢٢].

- ولكن من الذى يختار السوية، ويصل إلى هداية النفس؟

الإجابة: يؤكد التحليل النفسى العلاجى: أن سيطرة الإنسان العاقل الراشد، على رغبات الذات الغريزية، وتحقيقها بشكل شرعى، يكون قد وصل بالنفس إلى السوية، أي: أن الشرعية في تحقيق الرغبات هي طريق السوية، أما الإجابة الأصلية لهذا السؤال الذى طرحناه، وهو كيف نصل إلى هداية النفس؟

نجدها فى القرآن الكريم، فيقول عزَّ من قائل: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾ [آل عمران: ١٠١].

وكذلك: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩)﴾ [الإسراء: ٩].

بل جاء العلاج النفسى والذى هو راحة لما فى الصدور فى قوله سبحانهُ وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ [يونس: ٥٧].

ثم تتجلى رحمة الله فى قدرته على شفاء الناس فى قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾ [الإسراء: ٨٢].

والشفاء هنا هو شفاءٌ للنفس وللروح، وليس معنى ذلك أن لا نذهب للطب، ونترك التداوى، فالرسول ﷺ لم ينه عن الطب والدواء، فقال: **«ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله»**. رواه الترمذى وقال حديث حسن.

والنبى ﷺ تداوى وأمر أصحابه بالتداوى، وكان يقول لأصحابه ـ رُضوان الله عليهم أجمعين ـ: **«اذهبوا إلى الحارث بن كلدة الثقفى»**. وهو طبيب مشهور منذ الجاهلية عرفهُ العرب، بل جاء رجلان يعرفان الطب من بنى أنمار فقال لهما: «أيكُما أطب؟ يعنى: أيكُما أحذق وأمهر فى صنعة الطب؟ فأشاروا إلى أحدهما، فأمره أن يتولى هو علاج المريض».

ولما سُئل ﷺ: **«يا رسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها ونقاة نتقيها؟ هل ترد من قدر الله شَيئًا؟ قال: هى من قدر الله»**. أخرجه ابن ماجة والحاكم وصححه الترمذى.

يعنى: أن الأمراض من قدر الله، والأدوية من قدر الله، لماذا إذن نعتبر المرض من قدر الله، ولا نعتبر الدواء من قدر الله، مع أن هذا من قدر الله، وهذا من قدر الله؟ فنحن ندع قدراً بقدر، ونرد قدراً بقدر[1].

***

(١) عن الدكتور يوسف القرضاوى، من إسلام أون لاين نت.
www.islam online net.com 2/4/2005

(٢)

تكليف النفس بأكثر من وسعها وعلاقة ذلك بالاكتئاب

يصاب الإنسـان بالاكتئاب عندما يفشل فى تحقيق رغباته ؛ أى أنه يتجه إلى ناحية المرض النفسى، فى حين أن الصحة النفسية على الناحية الأخرى التى هى توافق بين الطموحات والقدرات، بمعنى: إذا زادت الطموحات عن القدرات، أصيب الإنسان بالإحباط، الذى يؤدى بدوره إلى التعاسة فى الحياة، ومن ثم يلجأ الإنسـان إلى كبت الرغبة المحبطة، فى مخزن اللاشعور داخل النفس، ومن هنا تؤكد النظريات النفسية فى العـلاج النفسى، وخصوصًا فى علاج الاكتئاب، أن يطمح الإنسان فى حدود قدراته، ويتكيف معها؛ أى: لا يحملها ما لا طاقة لها به، حتى لا يقع فريسة للمرض النفسى، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ولكن الإنسـان لا يقتنع بقدراته المحدودة فى أغلب الأحيان، بل يرجع سبب الفشل إلى الآخر، كأن يكون الآخر حاسدًا، أو يدبر له المؤامرات، فيتحول من شخصية اكتئابية محبطة إلى شخصية وساوسية تشك فى الآخر، وشيئًا فشيئًا يتحول إلى الوسـاوس القـهـرية، والشك فى الآخـر هو البـديل عن الشك فى قـدرات الذات الداخلية، فبدلاً من كونه فاشلاً وضعيف القدرة، يكون الآخر هو الذى دبر له المؤامرات لفشله.

بيد أن جدل الإنسان لا يهدأ في تبرير فشله، أليس الإنسان أكثر شيء جدلاً، فالجدل حيلة دفاعية لا شعورية، وهي من أكثر الحيل الدفاعية استخدامًا، وقد اكتشفنا ذلك بواسطة التحليل النفسي في القرن العشرين، ونجد جدل الإنسان مذكوراً في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

فالإنسان الذي لا يعرف قدر نفسه، إنما هو في مرحلة العمى النفسي، والعمى النفسي هنا هو عمى القلب، هو العمى الذي في الصدور والأقفال التي على القلوب، فكيف لا يبصر الإنسان الضال بعينيه ولا يسمع بأذنيه؟!

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧].

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥].

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٥].

* * *

(٣)

الصراع بين ذاتوات النفس البشرية
فى القرآن الكريم وعلم النفس

تقسم النفس البشرية من وجهة نظر التحليل النفسى إلى ثلاثة أبنية:

(الهىَ، والأنا، والأنا الأعلى).

١ ـ الهىَ تسعى إلى اللذة الحالية ولا تتحمل إرجاء الإشباع وهى نظرية غريزية تسير وفق مبدأ اللذة فقط، وتتركز حول الجنس والعدوان والسيطرة، فى الهنا والآن.

٢ ـ أما الأنا الأعلى فهو الضمير الأخلاقى، هو الدين والقانون والعادات والتقاليد والعرف الذى يحول بين الهى الساعية إلى اللذة وتحقيق رغباتها الآثمة.

٣ ـ ثم تأتى الأنا لضبط الإيقاع وحل الصراع بين رغبات الهىَ الغريزية التى تنشد اللذة الحالية وبين أوامر الأنا الأعلى الصارمة، وتحاول الأنا حل الصراع بحل واقعى وشرعى، كأن تحول الرغبة الجنسية غير المشروعة إلى رغبة جنسية مشروعة بالزواج؛ وهنا يحل الصراع.

أما إذا سيطرت الهىً؛ أى اللذة الحالية على الإنسان؛ فلن يحظى إلا بالخسارة سواء على المستوى النفسى أو الاجتماعى وفى الدنيا والآخرة، ونجد توضيحًا لكل ذلك؛ أى: فى سعى الإنسان إلى اللذة الحالية دون اعتبار للمستقبل فى تلك الآية الكريمة من سورة البقرة: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. أى: من الناس فريقٌ همه اللذة الحالية والغنى والثراء والجنس، وليس له فى الآخرة حظ أو نصيب من رحمة الله.

أما من تسيطر عليه الأنا الراشدة العاقلة ويسعى إلى تحقيق شهواته ولذاته عن طريق مشروع سواء بالزواج أو السعى إلى الرزق الحلال حصولاً على الثراء؛ فيكون قد اختار السوية وفاز فى الدنيا والآخرة.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

أى هؤلاء السعداء الأبرار الذين طلبوا سعادة الدارين هم العقلاء الذين لهم حظ وافر من الأجر والثواب لأنهم أحسنوا فى الدنيا، فنالوا حظهم في الآخرة.

فهاتان الآيتان ٢٠٠، ٢٠١ من سورة البقرة، انبثق منهما نظرية تقسيم النفس البشرية فى التحليل النفسى.

ومن المعروف أن نظرية التحليل النفسى جاءت على يد «فرويد» عالم النفس اليهودى، إلا أنهم فى قمة ما وصلوا إليه من نظريات علمية إنما رجعوا دون أن يدروا إلى القرآن الكريم؛ لأنه دين الفطرة البشرية، فطرة الله التى خلق الناس عليها.

ومن كان يريد ثواب الدنيا فقط، فهو مريض نفسى يسير وفق مبدأ اللذة فقط؛ أى أن الأنا الطفلى هو الذى يتحكم فيه كما أوضح لنا «إريك بيرن» فى نظرية التحليل التفاعلى داخل النفس البشرية حيث أكد أن لدى الإنسان أنا طفليًا يريد الإشباع الفورى ولا يتحمل الإحباط، يسعى إلى اللذة فقط دون أدنى اعتبار للواقع، وهناك الأنا الراشد الذى يسعى إلى تحقيق الإشباع والحصول على اللذة ولكن بشكل عاقل ومشروع، يؤكد «بيرن» أن الصحة النفسية للإنسان إنما هى سيطرة الأنا الراشد على نفسية الإنسان، حيث يجد فيها كل الإشباعات واللذات المشروعة، ويحمى نفسه من العقاب فى حالة سيطرة الأنا الطفلى عليه وتحويله إلى مريض نفسى.

ونظرية «إريك بيرن» فى التحليل التفاعلاتى فى الأنا الطفلى والراشد نجد لها وصفًا دقيقًا وجميلاً فى هذه الآية: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

أى من كان يريد لعمله ثواب الدنيا فقط ؛ أى أجرها العاجل الزائل فعند الله ما هو أغلى من ذلك وأنفس ، عنده أجر الدنيا والآخرة فلماذا لا يطلب الإنسان ما هو أحسن؟ والإجابة : أنه مريض نفسى .

وفى الحديث الشريف : «من كانت الدنيا همه ؛ جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يؤت من الدنيا إلا ما قدر له» . (الحديث رواه الترمذى) .

* * *

(٤)

النفاق كمرض نفسى

(الفرق بين القول والعمل فى القرآن)

الثنائيات الوجدانية أحد اكتشافات علم النفس، ونعنى بها: الحب والكره معًا، الرغبة والرهبة معًا، الفكرة وعكسها معًا، بمعنى: أن القول يكون ضد الفعل، وتعد الثنائيات من أكثر الأمراض النفسية انتشارًا، وأكبرها خطرًا؛ ذلك لأنه إذا كان القول عكس الفعل، ضل صاحبه، وقفز فى بحر النفاق، وهو بحر جد عميق، فالمنافق مريض نفسى مخادع، ويرجع ذلك إلى هشاشة التكوين النفسى للمنافق، فهو يريد أن يرضى الجميع، بل يريد أن يرضى كل رغباته، ومن هنا كان خداع المنافق للآخر، إنما هو خداع لنفسه.

ويقول الحق سبحانه عن المنافقين: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

فالخداع والنفاق كمرض نفسى موجود فى القرآن، وما كان دور علم النفس إلا اكتشافه، وهو ما يعرف بالثنائيات.

وفى النفاق، يقول عز من قائل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

أى أن فريقًا من الناس يسرك كلامه، بحلاوته وفصاحته، ولكنه منافق كذاب، تلك هى الثنائية الوجدانية، والتى تجلت فى الآيات القرآنية السابقة، والتى لم يكتشفها التحليل النفسى إلا بعد أربعة عشر قرنًا من الزمان.

وفي النفاق يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

يقول عز من قائل: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٦ ـ ٦٧]

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

* * *

(٥)

من الذى يتخذ القرار.. الروح أم العقل؟

من يتخذ القرار العقل أم الروح؟

الإجابة: الروح هى التى تتخذ القرار، والعقل هو وسيلة تنفيذ القرار؛ أى: أن الروح هى السلطة التشريعية فى سيكولوجية اتخاذ القرار، بينما العقل هو السلطة التنفيذية للقرار.

ولكن أين مركز اتخاذ القرار فى المخ؟ يوجد مركز اتخاذ القرار فى الجبهة الأمامية من المخ، فلقد أكد العالم الكندى فى علم التشريح والأجنة منذ خمسين سنة فقط، أن المخ الذى تحت الجبهة مباشرة فى الناصية، هو الجزء المسئول عن الكذب والخطأ، وبالتالى هو مكان تنفيذ القرار.

ولو قطع هذا الجزء من المخ، فإن صاحبه لن تكون له إرادة، ولن يكون قادراً على اتخاذ القرار.

فالروح هى التى تتخذ القرار، والروح هى التى ترى، ولكن العين هى الجارحة، والروح تسمع، ولكن الأذن هى الجارحة، وكذلك المخ جارحة، لكن فى النهاية هو مكان تنفيذ القرار[1].

ولذلك عندما تطاول عمرو بن هشام(أبو جهل) على محمد ﷺ وقال للكفار: واللات والعزى لئن رأيت محمداً ﷺ يصلى، لأطأنَّ على عنقه، ولأعفرنَّ وجهه

---

(١) (الشيخ عبد المجيد الزندانى: وغداً عصر الإيمان).
www.goecitics.com/rr-ccm/z14.htm2/2005.30/3/2005.

بالتراب، فما أن اقترب قليلاً من رسول الله ﷺ، ليفعل به ما حلف عليه، حتى رجع يهرول وهو يتقىٰ وجهه بيديه، فقال له الكفار: ما لك يا أبا الحكم؟ قال لهم: رأيت بينى وبين محمد ﷺ خندقًا من نار، ورأيت أجنحة وهولاً تكاد تختطفنى، فبلغ ذلك محمد ﷺ، فقال: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً، وفيه نزلت هذه الآيات: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ٩ ـ ١٦].

أى: أن الله سبحانه وتعالى سيسحب أبا جهل الكافر من ناصيته ـ وهى مقدمة شعر رأسه يقذفه فى نار الجحيم.

فلماذا الناصية؟ لأنها مركز تنفيذ القرار، وأن روح أبى جهل الشريرة هى التى اتخذت القرار.

وكذلك فى قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

[القيامة: ٣١ ـ ٣٢].

* * *

(٦)

الروح هى المادة الحافظة للجسد

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء : ٨٥] .

الروح هى سر الحياة ، ووظيفتها : استمرار الحياة ، وعندما تصعد الروح إلى خالقها سبحانه وتعالى ، تنتهى الحياة ، ويصبح الجسد بدون روح ، فيبلى ويتعفن .

فالروح هى المادة الحافظة الربانية ، التى تحافظ على الجسد من التعفن ، فالمواد الحافظة والتى هى من صنع الإنسان تحافظ على الأغذية واللحوم ستين أو ثلاث سنوات ، فى حين أن الروح تحافظ على الجسد عشرات السنين ، فأى مادة حافظة فى العالم مثل الروح ، ولأنها مادة حافظة ربانية فلن يفسد الجسد طوال وجود الروح بداخله .

* * *

(٧)

القرآن والعلاج النفسى للمدمنين

العلاج النفسى لإدمان الخمر يسير وفق مراحل معينة، يبدأ أولاً بسحب المخدر من الدم، فإذا كان المدمن يتعاطى (١ مللى جرام) من المخدر، تقوم بإعطائه فى أول يوم من أيام العلاج (٠,٨ مللى جرام) (من عقار طبى بديل عن المخدر الأصلى)، وفى اليوم الثانى (٠,٦ مللى جرام)، وفى اليوم الثالث (٠,٤ مللى جرام)، وفى اليوم الرابع (٠,٢ مللى جرام)، وهكذا حتى نسحب كمية المخدر من الدم، وذلك بتنقية الدم من المخدر على مراحل زمنية محددة، فمن المستحيل أن يتخلى المدمن عن المادة المخدرة مرة واحدة، بل على مراحل زمنية معينة، وبعد سحب المخدر من الدم تبدأ مرحلة العلاج النفسى الذى يعتمد على تقوية الذات شيئًا فشيئًا بحيث تصبح قادرة على تحمل الإحباط الناشئ عن عدم تعاطى المخدر، والعلاج النفسى أيضًا يسير وفق مراحل معينة؛ أى: أن علاج الإدمان على الخمر أو غيره من المخدرات إنما يتم على مراحل حتى يستطيع أن يتحمله الإنسان المدمن، وهذه الفلسفة العلاجية الكيميائية النفسية لعلاج إدمان الخمر، إنما اتخذت من العلاج الربانى لمدمنى الخمر، فسبحانه وتعالى لم يحرِّمها مرة واحدة، لعلمه أن ذلك أمر مستحيل على نفسية وكيميائية جسم المدمن فحرمها سبحانه على ثلاث مراحل، حتى يتخلص المدمن فى تلك المراحل من سموم المخدر داخل الجسم، وحتى يتمكن من تكوين بناء نفس قوى قادر على تحمل الإحباط وتجاوز أزمة الإدمان، وبدأ سبحانه وتعالى علاج إدمان الخمر فى المراحل الثلاث الآتية:

١ - فى سورة البقرة فى الآية ٢١٩: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

٢ ـ ثم في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

٣ ـ أما المرحلة الثالثة والأخيرة لعلاج إدمان الخمر في القرآن الكريم فجاءت في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

والآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وما نفعله الآن نحن علماء النفس والطب النفسي في علاج إدمان الخمر، هو ذلك العلاج الرباني في القرآن الكريم؛ أي: العلاج على مراحل.

***

الفصـــل الثـــانـــى

الإيمان والإلحاد

١ - الرد على الملحدين.

أولاً: من زاوية التحليل النفسى.

ثانيًا: من زاوية الفلسفة المادية الحسية.

ثالثًا: من آيات القرآن الكريم.

٢ - الثقة فى الله سبحانه وتعالى تغنيك عن الثقة فى العبد.

(١)

الرد على الملحدين

سنقوم فى الرد على الملحدين باتباع الخطوات الآتية :

١ ـ الرد على الملحدين من وجهة نظر التحليل النفسى .

٢ ـ الرد على الملحدين من وجهة نظر الفلسفة المادية الحسية .

٣ ـ الرد على الملحدين بآيات القرآن الكريم .

أولاً: الرد على الملحدين من وجهة نظر التحليل النفسى

قدم لنا التحليل النفسى فهمًا عميقًا للاشعور الإنسانى، والحيل الدفاعية التى يستخدمها الإنسان، وهى حيل لا شعورية من قبيل الكبت، والإسقاط، والإزاحة والتوحد، والنكوص، والإعلاء، والإنكار.

والكبت كحيلة دفاعية لا شعورية، إنما هو حيلة فاشلة؛ ذلك لأن الرغبة المكبوتة تظل تعمل جاهدة، حتى تجد فرصة مناسبة للظهور طالبة الإشباع، وأنسب الفرص لظهور الرغبات المكبوتة: هى هفوات اللسان، وزلات القلم، وحلم اليقظة، والحلم أثناء النوم.

أما حيلة الإسقاط فمعناها أن يسقط الإنسان ما بداخله من رغبات مستهجنة من قبل الذات على الآخرين، وإسقاط ما بداخلنا من مشاعر آثمة إنما يحقق هدفين :

١ ـ تخفيف كم القلق المعاش .

٢ ـ أن الآخر مثلى شعور مريح .

أما الإزاحة فهى نقل الشحنة الانفعالية من مصدرها الأصلى إلى مصدر آخر بديل؛ بحيث لا يستطيع هذا المصدر البديل إيقاع الأذى بى، كتحويل العدوان مثلاً إلى جهة لا تستطيع رد العدوان، وبذلك يتم خفض وتفريغ الشحنة الانفعالية داخل النفس البشرية.

والتوحد إنما هو تمثل سمات شخصية شخص آخر معجب به، كأن أقلد المدرس فى الشرح، أو الأب فى طريقة الكلام، أو الصديق فى تصرفاته، وهناك نوع آخر من التوحد، وهو التوحد مع المعتدى، عندما لا أستطيع أن أتغلب على الآخر؛ لأنه الأقوى، فمن الأفضل أن أتحد معه اتقاء قوته وإخفاءً لضعفى.

أما النكوص فهو الارتداد إلى مراكز التثبت السابقة، حيث يوجد الإشباع؛ أى العودة إلى مراحل الإشباع السابقة من عمر الإنسان، التى نلجأ إليها ونرتد إليها، عندما نفشل فى تحقيق الإشباع فى الوقت الراهن؛ أى أن النكوص هنا إنما إشباع بديل عن الإشباع (الأصلى)، أو إذا شئت فقل هو الإشباع القديم المتاح، حيث لا يوجد أى إشباع حالى.

أما الإعلاء فهو الارتقاء بالشحنة الانفعالية من مصدر أقل إلى مصدر آخر أعلى، كأن نحوّل الشحنة العدوانية إلى ممارسة رياضية، وهكذا.

أما الإنكار فهو حيلة دفاعية لا شعورية تسعى لإنكار الواقع، عندما يكون مؤلمًا أو محبطًا أو معاقبًا، وترغب فى صنع واقع مشبع سعيد غير معاقب.

ويزداد الإنكار شدة، عندما يزداد الواقع إحباطًا أو ألمًا أو عقابًا.

والإنكار هنا إنما هو حيلة دفاعية لا شعورية، قوامها الدفاع عن الذات ضد الإحباط والعقاب.

ولذلك نجد أن متعاطى الحشيش إنما يتعاطى الحشيش رغبة منه فى إنكار الواقع المحبط المعاش وصنع حالة من السعادة، تنتهى بزوال أثر المخدر، وبعد زوال أثر المخدر يرجع متعاطى الحشيش مرة أخرى إلى المخدر لإنكار الإحباط، ثم يلجأ إلى المخدر فيصنع له حالة من السعادة المؤقتة التى تنتهى بزوال أثر المخدر، وهكذا فى دائرة لا تغلق.

ذلك ملخص بسيط عن معنى الحيل الدفاعية، وكيفية عملها، أردت أن أوضحه للقارئ في البداية، قبل الرد على الملحدين من وجهة نظر التحليل النفسي، لوجود علاقة بين الحيل الدفاعية والإلحاد، بل إن الإلحاد هو أحد الحيل الدفاعية.

الإلحاد من وجهة نظر التحليل النفسي، إنما هو حيلة دفاعية لا شعورية وهي حيلة الإنكار.

ـ ولكن لماذا؟ (لماذا إنكار وجود الله؟).

لأن الإنكار حيلة دفاعية لا شعورية، ضد الخوف من حساب الله.

ـ ولكن لماذا الخوف من حساب الله؟

لأن الملحد أنكر وجود الله، وهو على يقين من وجود الله سبحانه وتعالى، ويدرك تمامًا حجم حسابه، ومن هنا كانت الحيلة الدفاعية المناسبة للملحد هي الإنكار.

ـ ومعنى الإنكار هنا: هو العمى النفسي.

وكلما ازدادت ذنوب الملحد، ازدادت مشاعره ميلاً لإنكار وجود الله، فشدة الإلحاد تتناسب مع شدة الإنكار؛ تفاديًا للحساب.

فشدة الإنكار تعني شدة اليقين من وجود الله، وشدة الخوف من الحساب في آن واحد.

فمتعاطي الحشيش عندما ذهب إلى المخدر، إنما هدفه هو إنكار الواقع المحبط المعاش، وصنع حالة من السعادة والبهجة ليس فيها حساب أو عقاب.

والملحد كالمدمن ينكر الواقع (وهو وجود الله سبحانه وتعالى)، ويصنع حالة من البهجة والسعادة، بفعل المخدر النوعي الجديد وهو الإلحاد.

فإذا كان المدمن ينكر الواقع المحبط المعاش ويلجأ إلى المخدر (سواء كان الحشيش أو الكحول أو الهيروين) فالملحد ينكر وجود الله، ويلجأ إلى الإلحاد كمخدر يصنع له حالة من البهجة والسعادة، إلا أن متعاطي الحشيش أو مدمن الكحول، يعود بعد زوال أثر المخدِّر إلى الواقع، في حين أن الملحد لا يرجع إلى الواقع إلا بعد زوال الحياة.

ذلك لأن إدمان الكحول إنكارٌ مؤقتٌ للواقع، أما الإلحاد فإنكار دائم للواقع (واقع وجود الله).

ثانياً: الرد على الملحدين من زاوية الفلسفة المادية الحسية

ظهرت الفلسفة المادية الحسية، لتعلن أنها لا تؤمن إلا بما هو مادى ومحسوس، وبالتالي فكرة وجود الله سبحانه وتعالى فكرة غيبية، وكذلك الرسل، من وجهة نظرهم، كما جاءت فى الفلسفة الوجودية.

والفلسفة الوجودية ترى أن الإنسان حر حرية مطلقة، ولديه القدرة الكاملة والحرية في الاختيار، ولكنه مسئول عن ذلك الاختيار؛ أى: لابد أن يتحمل مسئولية اختياره، وتزعم الوجودية ممثلة فى الفيلسوف الفرنسى: «جان بول سارتر»، الذى تأثر كثيراً بفلسفة أستاذه هيجل.

فقال: إن الوجود هو المحسوس فقط، وأن العدم هو الغيبيات.

أما «جان جاك روسو» الفيلسوف الفرنسى، فموقفه من الدين على النحو الآتى:

١ - اعتمدت الدول القديمة على الدين فى نظام الحكم.

٢ - لكل دولة دينها الخاص.

٣ - الدولة الحديثة يجب أن تكون كيانًا اعتباريًا لا دين له.

٤ - لابد لأفراد المجتمع أن يحترموا القوانين المدنية التى يجب أن تنطبق على الجميع.

٥ - لا تتدخل الدولة فى الدين، ويجب أن يترك الدين كمعتقد شخصى.

- موقف هيجل من تاريخ البشرية

يريد هيجل أن يدرس تاريخ البشرية كظاهرة طبيعية، وأن يفسرها تفسيراً علميًا وعقليًا، فيؤكد هيجل أن الجنس البشرى، منذ فجر التاريخ، وهو فى صراع لمحاولة فهم العالم فهمًا عقليًا.

أما كارل ماركس فيقول: (إن هيجل يرى أن حركة الفكر هي الإله (الخالق)، أما أنا فأرى العكس؛ إذ إن حركة الفكر ليست الإله، وإنما هي انعكاس لحركة المادة منقول إلى دمغ الإنسان، ويقول أيضًا: إن وحدة العالم ليست في كيانه بل في ماديته).

ويرى هيجل أن الجدل يجب أن يكون المنطق الجديد، الذي ينكر أي حقيقة مطلقة، أو أي منطق ثابت، بل يعمل الجدل على تحويره وتبديله، ويقترح أن يتم تحرير الفكر الإنساني تحريراً كاملاً.

والوجود والعدم هو مؤلف سارتر الأساسي، ويعني سارتر بالوجود: أنه العالم المادي المحسوس، وهو لا يؤمن إلا به، أما العدم فهو الغيبيات وهو لا يؤمن بها.

وباختصار شديد: نجد أن الفلسفة المادية الحسية لا تؤمن إلا بعالم مادي محسوس، ولا تؤمن بفكرة وجود الله؛ لأنها غيبيات من وجهة نظرهم كما أنها فكرة لا تنتمي إلى العالم المادي المحسوس.

وسوف نقوم بالرد على الوجودية وفلسفتها المادية الحسية بوجهة نظر فلسفية مضادة للفكر المادي المحسوس؛ ألا وهي وجهة نظر الفيلسوف الفرنسي: (رينيه ديكارت: ١٥٦٩ : ١٦٥٠م).

بدأ ديكارت فلسفته في الشك بمقولته الشهيرة: (أنا أشك إذن أنا موجود).

«ولكن ينبغي أن نؤكد أن ديكارت اعتبر أن عملية الشك هي أصل عملية التفكير، وإن كان يشك فهو بالضرورة يفكر، وهو إذن بالضرورة موجود، وبالضرورة أيضًا لابد من واجد لهذا الوجود، ألا وهو الله سبحانه وتعالى».

ـ المرحلة الفلسفية الأولى عند ديكارت بدأت من الشك إلى اليقين:

الأساس في فلسفة ديكارت هو الشك، فالشك خطوة للتأمل، والتفكير هو السبيل عند ديكارت إلى اليقين الفلسفي.

ويقول ديكارت: «إني أشك في جميع تلك الأشياء: في رأسي، في جسمي، في حواسي، إنني أشك هذا أمر ثابت، وإني أفكر أيضًا، فلا فارق بين كوني أشك وكوني أفكر، وكلما كنت أفكر فأنا موجود، لقد استطعت أن أثبت وجود نفسي إذن هكذا».

ـ المرحلة الفلسفية الثانية عند ديكارت : من النفس إلى الله

يقول ديكارت : «ما دمت أشك ؛ فإذن أنا أفكر ؛ فإذن أنا موجود» فكيف يساعدنى هذا فى تأمل العالم والكون؟

يقول ديكارت : «وجودى يفترض العدم الذى خرج منه الوجود ، وهذا العدم يفترض قدرة مطلقة ، لا يمكن أن أكون أنا حائزاً عليها ، ثم إنى جوهر مفكر ، ولا يمكن أن أكون أنا من منحت نفسى الوجود ؛ إذن لا يمكن وجودى دون سبب . إذ لا بد أن يكون للوجود من سبب ما ، وأن يكون من أوجدنى أكمل منى ؛ فهو إذن الكامل وأنا العاجز» .

فإذا كان العدم مجرد غيبيات عند سارتر فى فلسفته المادية الحسية ، فإن العدم عند ديكارت هو القدرة المطلقة التى أوجدت الوجود ؛ هو الله سبحانه وتعالى .

ـ ومن هنا نستطيع أن نقيم هذا الحوار مع الملحد :

سؤال للملحد : هل تؤمن بأن لك روحًا وجسدًا ، أم جسدًا فقط؟

الملحد : أؤمن بأن لى روحًا وجسدًا ، ولكنى أستطيع أن أتعرف على روحى من خلال آثارها ؛ أى : من خلال التنفس والنبض ، وعمل القلب ، والدورة الدموية ، والحركة والتفكير والإرادة .

سؤال : والروح التى تؤمن بها هل هى شىء حسى مادى تستطيع أن تراه وتمسكه فى يدك؟

الملحد : لا ، فالروح شىء غير حسى ، ولا أستطيع أن أراه أو أتلمسه ، ولكن كما قلت لك : أستطيع أن أتعرف على الروح من خلال آثارها .

سؤال : والروح غير الحسية ، تلك التى تؤمن بها ، هل أتت من شىء حسى ، أم من نفس الطبيعة ؛ أى : من شىء غير حسى .

الملحد : وفقًا للمنطق ، فغير الحسى لا بد وأن يأتى من نفس الطبيعة ؛ أى : من غير حسى مماثل .

أنت الآن أيها الملحد قد آمنت بأن لك روحًا غير حسية ، وهذا يتعارض مع فلسفتك الحسية المادية ، وهذه الروح غير الحسية قد أتت من نفس الخاصية ؛ أي : من مدرك غير حسي أعلى ، وهذا المدرك غير الحسي الأعلى هو الله سبحانه وتعالى .

ثالثًا: في الرد على الملحدين بآيات من القرآن الكريم

آيات ترد على النظرية المادية للملحدين من خلال عرض بعض الآيات القرآنية التي تحوي بين دفتيها الإشارة إلى إعجاز الله سبحانه وتعالى في هذا الكون ، وبما أن الملحد لا يؤمن إلا بالمحسوسات والماديات ، فهذه أدلة مادية تدل على وجود الخالق سبحانه وتعالى ، وأنه الخالق الأوحد لهذا الكون .

آيات كونية علمية ما زال العلم الحديث يثبت صحتها .

١ ـ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٩] .

٢ ـ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

٣ ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس : ٥] .

٤ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد : ٣] .

٥ ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾

[إبراهيم : ٣٢] .

٦ ـ ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

٧ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٤ ـ ١٦].

٨ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

٩ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٣ ـ ٦٥].

١٠ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٤٦].

١١ ـ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦٠: ٦١].

١٢ ـ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ القصص: ٧١: ٧٢].

١٣ ـ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٢ : ٢٣].

١٤ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٢٩ : ٣٠].

١٥ ـ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١١ : ١٢].

١٦ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

[فاطر: ٢٧ ، ٢٨].

١٧ ـ ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

[يس ٣٧ : ٤٠].

* * *

(٢)

الثقة فى الله سبحانه وتعالى تغنيك عن الثقة فى العبد

الثقة فى الذات والثقة فى الآخر وجهان لعملة واحدة، فمن يفقد الثقة فى الذات يفقد الثقة فى الآخر.

ويأتى الكثير من الأمراض النفسية نتيجة فقدان الثقة فى الآخر، والتى هى أصلاً فقدان الثقة فى الذات، ومن هذه الأمراض: الشك والوساوس والغيرة، والتى تصل فى بعض الأحيان إلى كره أو قتل الآخر، ولكن عندما يقتل المريض النفسى الآخر، وهنا قمة السادية والعدوانية إنما يقتل فى نفس الوقت ذاته، وهى قمة المازوجية.

أى: أن المريض النفسى هنا إنما يقتل ذاته فى الآخر.

وقد يقتل الآخر لأنه خذله ولم يساعده، اعتقاداً منه أن الآخر سوف ينقذه ويعطيه ما يريد، هذا الاعتقاد فى الآخر هو أحد أعراض مرض ضعف الذات وضعف الإيمان بالله سبحانه وتعالى، فيجب أن نثق فى أنفسنا وألا نعتمد على الآخر، يجب أن نثق فى الله وحده، ونعتمد على الله وحده، ونتوكل على الله وحده؛ هذا هو العلاج النفسى لفقدان الثقة فى الآخر، وفى ذلك يقول تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وكذلك الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وكل الآيات الكريمة الآتية؛ إذ يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦]

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

فالثقة في الله سبحانه وتعالى عن إيمان حقيقي من القلب، وعن نفس مطمئنة تعمل الصالحات، هي العلاج النفسي البديل عن فقدان الثقة في الآخر.

فالله سبحانه وتعالى وحده القادر على أن يعطيك الخير، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

[الأنعام: ١٧ ـ ١٨].

وزيادة في الثقة في الله والتأكيد عليها كعلاج نفسي شاق، وحماية لك من المرض النفسي في الاتكال على الآخر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

* * *

الفصل الثالث

القرآن الكريم

وتصنيف الاضطرابات النفسية

١ ـ تصنيف اضطرابات الطب النفسي والعقلي، الصادر من منظمة الصحة العالمية عام ١٩٩٢م، (التصنيف العاشر)، وتصنيف القرآن الكريم.

٢ ـ الرمزية في تفسير أحلام نبي الله يوسف ﷺ وفي التحليل النفسي.

٣ ـ الإحساس في القرآن الكريم.

٤ ـ مشاعر الغضب في القرآن والسنة.

٥ ـ المرض النفسي اختيار، والصحة النفسية اختيار.

(١)

تصنيف اضطرابات الطب النفسي والعقلي

في التصنيف العالمي العاشر للاضطرابات العقلية والسلوكية، الصادر من منظمة الصحة العالمية ١٩٩٢م، جاء تصنيف الاضطرابات النفسية على النحو الآتي:

(أ) اضطرابات القلق العام (الخوف).

(ب) اضطرابات القلق والاكتئاب (الخوف والحزن).

(جـ) اضطرابات الهلع (الخوف).

(د) اضطرابات القلق الرهابي (الخوف).

(هـ) رهاب الأماكن المتسعة (الخوف).

(و) الرهاب الاجتماعي (الخوف المحدد).

(ز) الرهاب المحدد (الخوف للمحدد).

(ح) اضطرابات الوسواس القهري.

(أحمد عكاشة: الطب النفسي المعاصر - مكتبة الأنجلو - مصر ٢٠٠٣ - ص ١١٦).

والملاحظ: أن أساس الاضطرابات النفسية هو القلق العام، الذي يؤدي إلى الخوف والحزن، فبنظرة سريعة إلي طبيعة الأمراض النفسية، نجد أنها سلسلة مترابطة من الخوف والحزن.

ونجد أن هذا التقسيم العلمي للأمراض النفسية، الصادر من منظمة الصحة العالمية

عام ١٩٩٢م فى التصنيف العاشر، ما هو إلا اكتشاف للإعجاز العلمى للقرآن الكريم فى مجال الأمراض النفسية.

فى الآيات الآتية يقول عز من قائل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠ـ ٣١].

فلماذا اختار الله سبحانه وتعالى الخوف والحزن دون بقية كل الأمراض النفسية؟

الإجابة فى القرآن الكريم، لأنهما أساس الاضطرابات النفسية، كما أكدتها منظمة الصحة العالمية، بعد أربعة عشر قرنًا من نزول القرآن الكريم، فلقد أكد القرآن الكريم أن الخوف والحزن هما سبب الأمراض النفسية، قبل أن تكتشف ذلك منظمة الصحة العالمية بأربعة عشر قرنًا.

وفى الآيتين ٣٠ـ ٣١ المشار إليهما فى سورة فصلت، نجد أن هناك معادلة ربانية غاية فى العظمة، فقدم لنا سبحانه وتعالى معادلة الصحة النفسية فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

أى: أن هذا هو الطرف الأول من المعادلة: الاستقامة والإيمان، ولكن ما هو الطرف الثانى.

الطرف الثانى: هو المكافأة على الاستقامة، والمتمثلة فى البعد عن الخوف والحزن، أساس المرض النفسى.

كما نجد فى هاتين الآيتين مكافأة أخرى: فالذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا سيسعدون فى الدارين: فى الدنيا والآخرة، ولهم فى الجنة نعيم خالد، كما تمتعوا فى الدنيا بحماية نفسية قوية؛ لأن الله هو مولاهم فى الدنيا والآخرة.

هذا هو طريق الصحة النفسية: الاستقامة والإيمان، حتى ننال النعيم فى الدارين.

ولم يأت تقديم الخوف على الحزن صدفة، بل إننا نجد أن جميع آيات القرآن

الكريم، الخاصة بالخوف والحزن، جاء فيها الخوف أولاً ثم الحزن، ولكن (لماذا الخوف قبل الحزن؟)؛ لأن الخوف هو أساس الحزن.

وسوف نستعرض هذه الآيات لتأكيد أن الحزن يأتي أولاً؛ لأن الخوف هو سبب الحزن، وإن لم تخف فلن تحزن إن شاء الله.

في الخوف والحزن يقول تعالى:

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨].

ويؤكد القرآن في آية أخرى في سورة المائدة، فيقول عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

أي: أن عدم الخوف وعدم الحزن هنا مكافأة للذين آمنوا بالله سبحانه وتعالى، فهنا تأكيد للمرة الثانية بأن سرّ الصحة النفسية، والراحة النفسية، والأمان في الدنيا والآخرة، هو الإيمان بالله، الذي يبعدنا عن أشد وأخطر الأمراض النفسية المتمثلة في الخوف والحزن.

***

(٢)

الرمزية فى تفسير الأحلام

(تفسير الأحلام فى قصة نبى الله يوسف ﷺ)

قدم لنا التحليل النفسى فن تفسير الأحلام، الذى يعتمد على استخدام الرموز فى الحلم بدلاً من الأشياء الحقيقية، فالحلم لغة رمزية تعبر عن اللغة الحقيقية، ولتفسير الحلم يجب أن يتعرف المعالج النفسى على الرموز المستخدمة فى الحلم ودلالة كل رمز، وكيف يحدث الإحلال والتبديل، وكيف يفك رموز الحلم، ليصل إلى التفسير الصحيح.

وكأن تفسير الحلم هو ترجمة حرفية من اللغة الرمزية إلى اللغة الأصلية، هذا هو الكشف العلمى الذى قدمه لنا التحليل النفسى فى القرن العشرين، ولكن الله سبحانه وتعالى علّم تفسير الأحلام لنبيه يوسف ﷺ، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك منذ ألف وأربعمائة سنة، ذلك هو الإعجاز القرآنى فى تفسير الأحلام.

ولكن كيف استخدم القرآن الرمزية فى تفسير الأحلام؟ لنذهب إلى قصة نبى الله يوسف ـ عليه وعلى نبيِّنا السلام ـ التى أوردها القرآن الكريم فى سورة «يوسف»؛ لنرى ماذا رأى فى حلمه؟ يقول عز من قائل: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

هنا بداية قصة نبى الله يوسف، وقد بدأت بذكر الرؤيا المنامية ـ الحلم ـ فقال: يا أبى، لقد رأيت فى منامى أحد عشر كوكبًا من كواكب السماء، خرت ساجدة بين

يدى، ورأيت فى المنام الشمس والقمر ساجدين مع الكواكب، فهنا فهم نبى الله يعقوب - بنور النبوة - أن ابنه يوسف سيكون له شأن كبير، وانتهت قصة نبى الله يوسف بأن إخوته الأحد عشر وأباه وأمه خروا له سجداً.

فيقول عز من قائل: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠].

- الرمزية فى الحلم:

فالحلم هنا استخدم اللغة الرمزية، فبدلاً من أن يسجد إخوة يوسف ووالداه، سجد له أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر بدلاً منهم تلك هي الرمزية في تحليل الأحلام، ولقد استخدمها القرآن الكريم قبل أن يكتشفها التحليل النفسى بأربعة عشر قرنًا.

ولقد شكر نبى الله يوسف ربه سبحانه وتعالى على نعمة تفسير الأحلام.

فيقول عز من قائل: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

[يوسف: ١٠١].

وتأويل الأحاديث هنا هو تفسير الأحلام.

ثم نأتى للحلم الثانى فى قصة نبى الله يوسف، وكيف استخدمت الرمزية فى هذا الحلم، وكيف فسرها يوسف ﷺ، فقال عز من قائل: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

كان الفتى الأول طباخ الملك، والثانى ساقيه، اتُّهمَا بأنهما أرادا أن يسمَّا الملك، فاتفق أن أُدخلا معه، ولقد اشتهر يوسف فى السجن (بالعفة، والأمانة، وصدق الحديث، ومعرفة تعبير الرؤيا)، فقال أحدهما ليوسف: إنى رأيت فى منامى هذه الرؤيا: رأيت كأنى أعصر عنبًا يؤول إلى الخمر، وأسقى منه الملك.

وقال الثاني : رأيت في منامي أني أحمل على رأسي طبقًا فيه خبز ، والطير تأكل من ذلك الخبز ! !

أخبرنا يا يوسف بتفسير هذه الرؤى ، فإنا نراك رجلاً صالحًا تحسن تفسير المنامات والأحلام .

أراد يوسف ﷺ أن يدعوهما إلى التوحيد والإيمان ، قبل أن يعلمهما تفسير الأحلام ، واستغل وجوده في السجن للدعوة إلى الله ، وإرشاد الناس إلى الدين القويم ، وقبل أن يفسر الحلمين قال لهما : إنه لا يأتيكما شيء من الطعام من أهلكما إلا أخبرتكما ببيان حقيقته ، ونوعه واسمه ، وكيفيته قبل أن يصل إليكما ! فقالا له : هذا من فعل الكهنة ، قال : لست بكاهن ، ولا منجم ، إنما هو علم رباني علمني الله إياه ؛ لأنني مؤمن من بيت (نبوة ودين) ، وقد هجرت عبادة الأوثان ، وعبدت الله الواحد الديان ، اتبعت دين الأنبياء ، دين آبائي (إبراهيم وإسحاق ويعقوب) .

يا صاحبي ورفيقي في السجن ، آآلهة متعددة لا تنفع ولا تضر ، ولا تستجيب لمن دعاها كالأصنام والأوثان خير ، أم عبادة الإله الواحد الأحد المتفرد بالعظمة والجلال ، الذي يخلق ويرزق؟

وبعد أن أكمل دعوته للإسلام فسر الحلمين :

أما الذي رأى في منامه أنه يعصر خمرًا ، فسوف يخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه ، من سقي سيده الخمر ، وأما الآخر الذي رأى في منامه أنه يحمل على رأسه خبزًا تأكل الطيور منه ، فسوف يقتل ويصلب ويعلق على خشبة فتأكل الطيور من لحم رأسه ، هذا هو تفسير رؤياكما ، قضي الأمر ، وتم ذلك في قضاء الله ، وهكذا كان الأمر كما فسر لهما الرؤيا .

أما الحلم الأخير والذي فسره نبي الله يوسف ﷺ ، فهو الحلم الذي رآه الملك في منامه ، وهو ملك مصر ؛ حيث رأى رؤيا منامية ، عجيبة غريبة أفزعته : رأى سبع بقرات سمان جميلات ، خرجت من النهر ، وأخذت ترتع في أرض خصبة كثيرة العشب والنبات ، وخرج على أثرهن سبع بقرات هزيلات ، في غاية الهزال والضعف ، قبيحة الشكل والمنظر ، قد خرجت من ذلك النهر أيضًا ، فابتلعت البقراتُ العجافُ البقرات

السمانَ، كما رأى سبع سنابل خضراء زاهية قد انعقد حبها وأصبحت جاهزة للحصاد، وسبع سنابل ليس فيها حب، وإذا بالسنابل اليابسة تلتف على السنابل الخضراء، فتبتلعها ولا تُبقى لها أثرًا، فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن تفسير هذا الحلم.

﴿ قالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤].

فقال الساقى الذى نجا من السجن، وتذكر وصية يوسف بعد بضع سنوات: أنا أعرف من يفسر هذا الحلم، فأرسلونى إلى يوسف فى السجن، ودخل على يوسف وحاول أن يكون لطيفًا معه، وهنا تظهر شهامة يوسف ﷺ، فلم يشترط أن يخرجه من السجن لتفسير الحلم الذى قصه عليه الساقى، بل انطلق يفسر الحلم تفسيرًا واقعيًا دقيقًا؛ لأنه شعر أن البلاد مقبلة على مخاطر.

ـ فماذا كان تفسير نبى الله يوسف لهذا الحلم؟

قال لهم: تزرعون سبع سنين دائبين ـ أى: مستمرين ـ فى الزراعة دون انقطاع، بجد وعزيمة، فما حصدتم من الزرع فاتركوه فى سنبله، لئلا يأكله السوس، إلا ما أردتم أكله فادرسوه، واتركوا الباقى فى سنبله، ثم يأتى بعد سنوات الرخاء سبع سنين مجدبات، تأكلون منها ما ادخرتم أيام الرخاء، إلا القليل منه الذى تتركونه للزراعة، ثم يأتى بعد سنوات القحط عام خصب ورخاء، فيه يُمطَر الناس ويغاثون ويعصرون فيه الأعناب والزيتون لكثرة خصبه، ووفرة خيراته، وأوَّل لهم يوسف ﷺ البقرات السمان، والسنبلات الخضر، بسبع سنين مخصبات، تجود فيها الأرض بالخيرات الوافرة، ثم يعقبها سبع سنين مجدبة، تأكل الأخضر واليابس، وأرشدهم إلى أن يقتصدوا فى سنوات الرخاء إلى سنوات الجدب، كما عرفهم الطريق الأصلح فى أمور الزراعة: أن يتركوا الحب فى سنابله لئلا يأكله السوس، فأعجب الملك بهذا التفسير، فأمر بإخراج يوسف من السجن ليجعله من خاصته المقربين، وتسليمه إحدى الوزارات؛ فأبى يوسف أن يخرج من السجن إلا بعد إثبات براءته، وجعله الملك على خزائن الأرض.

وهذا هو تفسير الحلم الأخير فى قصة نبى الله يوسف، وكيف هداه الله سبحانه وتعالى على تفسير الأحلام.

- الرمزية فى تفسير حلم ملك مصر :

فالبقرات السبع السمان جاءت رمزاً لحصاد وفير من الحبوب لمدة سبع سنوات، أما البقرات السبع الهزال فكانت رمزاً للسنين السبع من القحط والجدب، أما التفاف السنابل اليابسة على السنابل الخضراء وابتلاعها، فإنما هو رمز للسنوات المجدبة، التى تأكل الأخضر واليابس .

فالحلم فى جملته بديل عن شىء آخر، عن شىء لا شعورى، وإن تأويل الحلم يهدف إلى الكشف عن الأفكار اللا شعورية .

وهناك ثلاث قواعد هامة لا بد من ملاحظتها عند تأويل الأحلام :

١ - لا ينبغى أن نهتم بالمعنى السطحى للحلم، واضحًا كان أو ملتبسًا، متناقضًا كان أو غير متناقض، المهم أن نصل إلى ما ترمز إليه الأفكار المطروحة فى الحلم؛ أى : فك شفرة الحلم من اللغة الرمزية التى يستخدمها، إلى اللغة الحقيقية التى يريدها .

٢ - يجب أن نهتم باستدعاء الأفكار البديلة عن كل عنصر من عناصر الحلم، فهذه الأفكار البديلة لعناصر الحلم هى التى تقودنا إلى فهم رموز الحلم .

٣ - «الحلم بديل محرف عن شىء آخر أصيل» .

كل هذه القواعد وأصول تأويل الأحلام، التى اكتشفها التحليل النفسى فى القرن العشرين، وكذلك الرمزية فى الحلم وكيفية فك شفرات الحلم موجودة فى القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا، وجدناها بوضوح فى تفسير الأحلام فى سورة يوسف عليه السلام .

***

(٣)

الإحساس في القرآن الكريم

يدرس علم النفس العام الإحساس والإدراك .

والإحساس : هو استقبال أعضاء الحس للمثيرات فقط دون إضافة معنى .

أما الإدراك : فهو إحساس مضاف إليه معنى .

ولكن أين توجد مراكز الإحساس في الإنسان؟

الإجابة يقدمها لنا علم التشريح ، الذى أكد لنا حقيقة علمية ثابتة ، وهى أن مراكز الأعصاب للإحساس توجد في الجلد ، وهذه المراكز متعددة منها ما يحس باللمس ، ومنها ما يحس بالبرودة ، ووجدوا أن أعصاب الإحساس بالحرارة والبرودة لا توجد إلا في الجلد فقط ، وعليه إذا دخل الكافر النار يوم القيامة وأكلت النار جلده كيف تكون المسألة؟ فالكفار ليس لديهم آية تبين هذه المسألة ، فتصبح مشكلة عند أهل الإيمان فى مواجهة أهل الإلحاد؛ حيث يقولون : تُخوّفوننا من النار ، فالنار تأكل الجلد ثم ترتاح ، لكن الجواب يأتى من المولى جل وعلا كاشفًا للسر ، ونذيراً للكافرين ، فيقول المولى عز وجل : **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾** [النساء : ٥٦] .

يخبرنا الله سبحانه وتعالى بسر وجود مراكز الإحساس في الجلد منذ ألف وأربعمائة سنة ، ولم يكتشفها علم التشريح إلا بعد مرور ألف وثلاثمائة وخمسين سنة[1] .

(١) (الشيخ عبد المجيد الذنداني : العلم طريق الإيمان) .
www.geocities.com/rr-ecm/z18.htm. 30/3/2005.

(٤)

مشاعر الغضب فى القرآن والسنة

يُعَرِّف علماء النفس الانفعال بأنه حالة من الاضطراب فى السلوك كالخوف والغضب، فهو اضطراب حاد يشمل الفرد كله ويؤثر فى سلوكه وخبرته الشعورية ووظائفه الفسيولوچية الداخلية، وهو ينشأ فى الأصل عن سبب نفسى، وتتعطل أثناء الانفعال جميع أنواع النشاطات الأخرى التى يقوم بها الإنسان، ويصبح نشاطه كله مركزاً حول موضوع الانفعال، ويصاحب الانفعال عادة كثير من التغيرات الفسيولوچية الداخلية مثل سرعة خفقان القلب، وزيادة ضغط الدم، واضطراب التنفس، وتوقف عملية الهضم، ويقسم العلماء الانفعالات إلى انفعالات سارة كالفرح والزهو، وانفعالات مكدرة مثل الخوف والغضب.

محمد عثمان نجاتى:

(علم النفس فى حياتنا اليومية ٩٨، ٩٩)

وسنناقش هنا انفعال خطير جداً على صحة الإنسان ألا وهو: انفعال الغضب.

روي أن رجلاً قال للنبى ﷺ: «أوصنى. قال: لا تغضب، فردد مراراً قال: لا تغضب».

وقد ثبت علميًا أن انفعال الغضب يؤثر على قلب الغاضب تأثيرَ العَدْو أو الجرى، فيزيد من عدد انقباضات القلب، ويضاعف بذلك كمية الدم التى يدفعها القَلب أو التى تخرج منه إلى الأوعية الدموية مع كل واحدة من هذه الانقباضات مما يجهد القلب، وكل ذلك من الممكن أن يتوقف عندما يتوقف الإنسان عن الجرى.

أما فى الغضب فلا يستطيع الإنسان أن يسيطر على غضبه، لا سيما وإن كان قد اعتاد عدم التحكم فى مشاعره، وقد لوحظ أن الإنسان الذى اعتاد الغضب يصاب بارتفاع فى ضغط الدم ويزيد عن معدله الطبيعى؛ حيث إن قلبه يضطر إلى دفع كمية من الدماء الزائدة عن المعتاد، كما أن شرايين القلب تتصلب جدرانها وتفقد قدرتها على الاتساع لكى تستطيع أن تمرر أو تسمح بمرور تلك الكمية من الدم الزائد والذى يضخها هذا القلب المنفعل الغاضب، كما أن تكرار الشعور بالغضب يؤدى إلى الإضرار بشرايين القلب، واحتمال الإصابة بأزمات قلبية قاتلة.

محمد كامل عبد الصمد :

(الإعجاز العلمى فى الإسلام والسنة النبوية)

ومن هنا جاءت نصيحة محمد ﷺ بعدم الغضب، حتى اكتشفها العلم الحديث بعد ألف وأربعمائة سنة.

* * *

(٥)

المرض النفسي اختيار.. والصحة النفسية اختيار

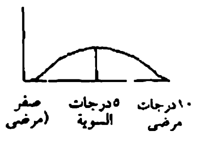
المرض النفسي اختيار، والصحة النفسية اختيار كما جاء فى القرآن وتقارير منظمة الصحة العالمية.

القلق هو أساس الاضطرابات النفسية، ولكنْ هناك نوعان من القلق: قلق مرضي؛ وهو الخوف والهلع من كل شيء ومن أى شيء، وقلق طبيعى من أشياء تؤدى إلى القلق فعلاً، كالقلق على حياة الأطفال ومستقبلهم وعلى العمل والنجاح الدراسى وفقدان الوظيفة، والأمان النفسى والمادى.

والطبيعى أن نملك القلق بدرجة سوية، فإذا كان مقياس القلق من صفر إلى ١٠ درجات، فالقلق الطبيعى هو الدرجة الوسطية؛ أى: ٥ درجات، بمعنى: أنه يجب أن يكون لدينا قلق حتى نستطيع أن نتقدم في الحياة ونتكيف مع الآخرين ونحافظ على أعراضنا وأموالنا وأنفسنا.

فالقلق الطبيعى إنما يحافظ على ضرورة الحياة، وعدم امتلاكنا للقلق يحول بيننا وبين الحياة فى أمان، فإذا لم نقلق على أولادنا وأعراضنا وأموالنا ومستقبلنا فذلك هو المرض بعينه، وكذلك امتلاكنا للقلق بنسبة ١٠/ ١٠ هو عين المرض.

ونستطيع أن نقسم القلق على النحو التالى:



وفى سورة الفاتحة توضيح لكل ما سبق، يقول سبحانه تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⁽٦⁾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾

[الفاتحة: ٦ ـ ٧].

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هنا هى الوسطية والسوية والصحة النفسية، أما ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ فهذا هو الطرف المريض، ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾ هو الطرف المريض الآخر. فالإسلام هنا ـ أى: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ـ إنما هو السوية والصحة النفسية وما عداه هو المرض والاضطراب، هم الذين غضب عليهم الله سبحانه وتعالى وأضلوا السبيل.

ولكن دائمًا وأبدًا هناك اختيار بين السوية واللاسوية، بين طريق الخير وطريق الشر؛ أى أن المرض النفسى اختيار، والصحة النفسية اختيار.

فى اختيار الصحة النفسية أو المرض النفسى

ويتجلى اختيار الإنسان للصحة النفسية أو المرض النفسي بنفسه في سورة الإنسان:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وكذلك فى سورة الإسراء فى الآية ١٥: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

[الإسراء: ١٥].

ويتجلى أيضًا الاختيار فى سورة البقرة فى الآية ١٧٥: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥].

أما اختيار راحة النفس والإيمان الذى هو قمة إنسانية الإنسان فى قضية الاختيار ـ فتجلى فى الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ثم يأتى الاختيار أفضل ما يكون وفيما إذا كان الإنسان سيختار الصحة النفسية وطريق الخير، أم سيختار المرض النفسى وطريق الشر، فى سورة الشمس: ﴿وَنَفْسٍ

وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

فى اختيار الصحة النفسية أو المرض النفسى، نجد أن النظرية الوجودية فى العلاج النفسى إنما تقوم على هذه الآيات، فالوجودية تعنى أن الإنسان حر وهو مسئول عن اختياره وبالتالى عليه أن يدفع ثمن الاختيار؛ لأنه يملك أدوات الاختيار وهى العين والعقل واللسان.

ويتجلى هذا الاختيار فى القرآن الكريم فى سورة البلد فى الآيات [٧ ـ ١٠].

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٧ ـ ١٠].

أى ألم يكرم الله الإنسان وأعطاه أدوات الاختيار من عقل وقدرة على التعبير فى اللسان، وبصيرة يختار بها طريق الخير وطريق الشر، فمن هنا كان الإنسان مسئولاً؛ لأنه يملك العقل؛ أى الأمانة، والتى ميزه بها الله سبحانه وتعالى، ويتجلى تميز الإنسان بالعقل فى سورة الأحزاب، فيقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

اختيار المرض النفسى سواء كان بالعدوانية المدمرة للذات وللآخرين، أو بالمازوخية وهى تعذيب الذات، أو بالوسواس والشك والإلحاد.

وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

أى هؤلاء المرضى لم يظلموا الله سبحانه وتعالى بمرضهم وكفرهم، ولكن ظلموا أنفسهم.

واختيار ظلم الإنسان لنفسه أيضًا توضحه هذه الآية الكريمة:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥].

أى اختاروا الضلالة بدل الهدى، والكفر بدل الإيمان.

وفى الاختيار: ومما يؤكد مسئولية الاختيار ما إذا كان خيرًا أو شرًا يتحمله الإنسان ويرد إليه هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧].

ولكن ماذا لو رجع الإنسان عن اختياره المرضى واختار طريق الصواب وهو الصحة النفسية؛ هنا يظهر العفو فورًا من الله سبحانه وتعالى، أما إذا استمر فى طريق المرض النفسى فليس له إلا العقاب.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾

[الإسراء: ٨].

ويتجلى الاختيار أيضًا فى الآية ١٣ من سورة الإسراء، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾

[الإسراء: ١٣].

وفى سيكولوچية الاختيار ترك الله سبحانه وتعالى حرية اختيار الإيمان للناس، فسبحانه وتعالى لو شاء لما كفر كافر، ولا جحد جاحد، ولآمن جميع الخلق، ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك، لكونه مخالفًا للحكمة الإلهية، وهى ترك أمر الإيمان إلى اختيار البشر ليترتب على ذلك قانون الثواب والعقاب:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ويقول عز من قائل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

* * *

الفصل الرابع

الإعجاز العلمى للقرآن الكريم

فى خلق الإنسان

١ ـ مراحل نمو الجنين في القرآن الكريم وعلم النفس.

٢ ـ جريمة الزّنا:

أ ـ في القرآن الكريم.

ب ـ في القانون الجنائى.

ج ـ في علم الصّحيّة.

د ـ في علم التّشريح.

(١)

مراحل نمو الجنين فى القرآن وعلم النفس

ـ خلق الإنسان أحد المعجزات الكونية للقرآن الكريم .

فيقول سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾

[المؤمنون : ١٢ ـ ١٤] .

ـ لقد أكد القرآن الكريم أن خلق الإنسان تم على مراحل ، حددها فى ثلاث مراحل وهى :

١ ـ مرحلة النطفة .

٢ ـ مرحلة العلقة .

٣ ـ مرحلة النشأة (وهى التحول إلى خلق آخر) .

ولنذهب إلى الطب وعلم الأجنة لنتعرف على هذه المراحل الثلاث :

المرحلة الأولى : من النطفة إلى العلقة : ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ .

«ما إن يتم التحام النطفة البيضاء ، حتى تبدأ البيضة الملقحة بالانقسام إلى خليتين ، فأربع ، فثمان ، وهكذا دون زيادة فى حجم مجموعة هذه الخلايا عن حجم البيضة الملقحة» .

وتتم عملية الانقسام داخل البيضة في طريقها إلى الرحم، تدفعها حركة أهداب البوق، والتقلصات العضلية المنتظمة لعضلات جدار البوق، حتى إذا وصلت إلى الرحم كانت كتلة من الخلايا الصغيرة الضلعية، يطلق عليها اسم التوتة، حيث تشبه ثمرة التوتة بتقسيمها الخارجي، ثم لا تلبث هذه الخلايا السطحية لهذه الكتلة أن تفترق عن الخلايا الداخلية، وتصبح بشكل خلايا أسطوانية، ومهمتها تأمين الغذاء، وبذلك يصبح محصول الحمل قابلاً للتعشيش، فتغرس الخلايا المغذية استطالاتها في مخاطية الرحم، وتستمر عملية العلوق ٢٤ ساعة، وبذلك تنتهي مرحلة تشكيل العلقة، وقد لا يدرك روعة التصوير القرآني لهذه المرحلة بالعلقة، إلا من شاهد تلك الكتلة الخلوية وهي عالقة علوقًا، وليس التصاقًا، بواسطة تلك الاستطالات التي غرستها في مخاطية الرحم، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١ ـ ٢].

المرحلة الثانية: من العلقة إلى المضغة:

بعد عملية العلوق تبدأ مرحلة المضغة في الأسبوع الثالث، بتشكيل اللوحة المضغية، وذلك ابتداء من الخلايا المضغية وهي الخلايا التي بقيت بعد انفصال الخلايا المغذية، واللوحة المضغية هي عبارة عن قرص مؤلف في البدء من ورقتين: خارجية وداخلية، ثم تتشكل ورقة ثالثة هي الوريقة المتوسطة، وحتى نهاية الأسبوع الرابع لا يكون هناك أي تمايز لأي عضو أو جهاز، ويمكن أن نسمي هذه المرحلة بالمضغة غير المخلقة، ثم يمر الحمل في أدق مراحله وأصعبها؛ حيث يطرأ على اللوحة المضغية المؤلفة من الوريقات الثلاث جملة تغيرات نسجية هادفة ابتداء من الأسبوع الخامس، ونسمي بعملية التمايز، أو كما أسماها القرآن: «التخليق»، فكل زمرة من خلايا هذه الوريقات تأخذ على عاتقها تشكيلاً واحدًا من أجهزة الجسم وأعضائه، وذلك في إطار من التكامل والتنسيق بين هذه الأجهزة، وهي تنمو وتتطور ليكون الإنسان في أحسن تقويم، وتنتهي عملية التخليق في نهاية الشهر الثالث تقريبًا، ويكون طول الجنين عندها ١٠سم، ووزن حوالي ٥٥ جرامًا.

ويمكن تسمية هذه المرحلة بالمضغة المخلقة، وهكذا يتضح جليًا إعجاز القرآن الكريم في وصفه لطور المضغة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]. فسبحان الله الخالق العظيم(*).

(*) (www.Quransite-com).

المرحلة الثالثة: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [طور الجنين]:

يميل محصول الحمل نحو الزيادة فى الوزن بعد الشهر الثالث، وتسعى الأجهزة التى تشكلت نحو التكامل، وتبدأ حركة الجنين ونبضات القلب، واستقلاب إفراز المشيمة الغددى، والنمو المتسارع فى حجم الجنين، وتكامل شكله الخارجى، ويكون نمو الجنين سريعًا فى هذه المرحلة، فبعد أن كان وزنه فى نهاية الشهر الثالث (٥٥ جرامًا) وطوله (١٠سم) سيصبح وزنه عند تمام الحمل (٣٢٥٠ جرام) وطوله (٥٠سم) وخلال هذه الفترة يتكامل شكله الخارجى، فيصبح لون الجلد أحمر، وتنبسط تجعداته وتسقط عنه الأوبار، وتنفتح الجفون وتتكامل الأظافر؛ أى: أن هذه المضغة أخذت شكلاً آخر(*)، فيقول تعالى.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ولقد ذكر القرآن قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا هذه المرحلة بدقة متناهية، وجاء الطب الحديث فى النصف الثانى من القرن العشرين، ليكتشف هذه المراحل المذكورة فى القرآن، ذلك هو الإعجاز القرآنى للمراحل الثلاث، ففى هذه الآيات الثلاث (١٢، ١٣، ١٤ من سورة «المؤمنون» أى منذ ١٤٢٦ سنة) جاء التصوير القرآنى لمراحل خلق الإنسان قبل أن تظهر كاميرات التصوير والسونار بألف وأربعمائة سنة، فما أعظم الخالق وما أعظم تصويره، فسبحان المصور العظيم المتعال، وسبحان الله، ولا إله إلا الله!!

* * *

(*) (www.Quransite-com).

(٢)

جريمة الزنا

فى علم الجريمة criminology : هناك جريمة ، وهناك نص قانونى وُضِع عقابًا لهذه الجريمة ، فالزنا وهتك العرض جريمة يعاقب عليها الجانى بعقوبة منصوص عليها ، ولم يهتم علم الجريمة بالضحية ، فيكتفى بسجن الجانى أو إعدامه ، أما الزانية فكان ينظر إليها على أنها ضحية ، ليس لها أى دور فى الزنا .

ثم جاء علم الضحية عام ١٩٤٠م ليسد فجوة فى علم الجريمة ، وأكد أن للضحية حقوقًا مادية ومعنوية يجب الحصول عليها ولا يكفى فقط معاقبة الجانى ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك وأكد أن الجانى له حقوق أيضًا ، ويجب الحفاظ عليها ، وآخر ما ذهب إليه : أن الضحية له دور فى كونه ضحية ، عكس ما كان يرى علم الإجرام .

ثم جاء علم التشريح anatomy ليؤكد لنا أنه فى جريمة الزنا وهتك العرض والاغتصاب مثلاً ، فإنه بالنسبة للفتاة البكر لا يمكن أن تغتصب إلا برضاها ، (إذا كان الاغتصاب من شخص واحد فقط دون أى تهديد من جانبه) وإلا إذا كان الاغتصاب من عدة أشخاص .

حيث أكد لنا علم التشريح أن عضلات رحم الأنثى وفخذى الأنثى من القوة بمكان ؛ بحيث لا يمكن اغتصابها إلا برضاها السيكولوچى ومن ثم البيولوچى ، وإذا شعر الرجل المغتصب بخوف يتحول الدم إلى الأطراف ، وبالتالى لا يستطيع مواصلة الاغتصاب ، إذن لا يوجد زنا أو هتك عرض إلا برضا الأنثى ، هذا ما أثبته العلم الحديث فى مجال التشريح .

وفى ذلك يقول تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]

فالله سبحانه وتعالى فسر لنا أن جريمة الزنا تبدأ بالزانية أولاً، ثم الزانى؛ أى: أنه بدون رضاها لن يتم فعل الزنا، (والمقصود هنا: برضاها النفسى، ومن ثم البيولوجى).

بينما فى فعل السرقة قدم الله سبحانه وتعالى السارق والسارقة؛ لأن الرجل هو الذى يتحمل الإنفاق.

فقال الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

ولم يقل تعالى: والسارقة والسارق؛ لأن السارق هو الأصل فى جريمة السرقة.

وقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

وهذا تأكيد صريح على أن الزانى لا ينكح إلا زانية مثله.

ومما يؤكد ذلك، قوله تعالى فى سورة يوسف: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

والمراودة هنا هى الطلب برفق ولين، كما يفعل المخادع بكلامه المعسول؛ أى: طلبت منه امرأة العزيز ـ التى كان يسكن معها فى القصر ـ أن يضاجعها، وتوسلت إليه بكل وسيلة، وغلقت أبواب القصر عليه، وأحكمت إغلاقها، وقالت له: هلم وأسرع إلى الفراش، قال يوسف: أستعيذ بالله وأستجير به من فعل الخيانة، إن زوجك هو ربى وسيدى الذى أكرمنى، وأحسن إلى فكيف أخونه فى أهله، إنه لا يفلح الخائن الذى يقابل الإحسان بالسوء، ولم تجد وسيلة لإخضاعه إلا أن تجذبه إليها غصباً عنه، وهى تريد إجباره، وهو يريد الهرب منها، وجذبته من ثوبه من خلف ظهره فانشق الثوب.

ثم تأتى الآيات لتؤكد غواية امرأة العزيز ليوسف ورغبتها فى أن يضاجعها.

فيقول عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[يوسف: ٢٤، ٢٥].

أي: ولقد همت به هم عزم وقصد وتصميم، تريد منه أن يضاجعها، وجاء الوسواس الخناس ـ الشيطان ـ يوسوس إليه أن يسايرها، ولكنَّ عفته، وحياءه، وإيمانه، وخوفه من الله غلب على هذا الهاجس الشيطاني، الذي مر على قلبه فصمم على الهرب منها ومقاومتها بكل صلابة، وحفظه الله سبحانه وتعالى وصرف عنه السوء؛ لأنه من عباد الله المخلصين.

والمعنى هنا أن المرأة هي أساس غواية الرجل بالكلام المعسول أو بلغة الجسد، أو بالفعل نفسه.

ولذلك قال عز من قائل في جريمة الزنا: ﴿الزانية والزاني﴾. ولقد عرفنا الآن لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الزانية على الزاني.

***

الفصل الخامس

الصحة النفسية والقرآن الكريم

١ ـ السادية فى التحليل النفسى والقرآن الكريم.

٢ ـ أسبقية السمع عن البصر.

٣ ـ الاكتئاب هو الخسران.

(١)

السادية فى التحليل النفسى والقرآن الكريم

أولاً: السادية فى التحليل النفسى

ونعنى بها: الرغبة والمتعة في إيذاء الآخر، وإهانته وتحقيره وإحباطه، ولا شك أن السادية تساعد على اغتصاب حقوق الآخرين، والإقدام على الجريمة، وخلال كل هذه الأفعال السادية يشعر السادى بالمتعة، فهناك نوع من السعادة يستشعرها مع إيذاء الآخر، وهي سعادة قوامها في التحليل النفسى: أن الآخر يكرهنى، ويريد إيذائى وقتلى، فعلي أنا أن أبادر بالعدوان؛ أى: ألتهم الآخر قبل أن يلتهمنى، ولكن هل فعلاً الآخر بدأ في كره السادى؟ الإجابة: لا .

فالسادى لديه تكوين نفسى قوامه كره الآخر؛ لأن الآخر مصدر إحباط له، ولا يعطيه كل ما يريد، فإن لم يعطه الآخر كل شيء فهو لا شيء، فيحول السادى هذا الشعور بكره الآخر ويسقطه على الآخر، فيكون المشهد النفسى الأخير على النحو الآتى، فبدلاً من أنى أكره الآخر، فالآخر هو الذى يكرهنى، فعلي أن أبادر بالعدوان على الآخر، والعدوان على الآخر إنما هو حماية للذات، أو دفاع عن الذات.

فالسيكوباتى يشعر أيضًا بالاكتئاب نتيجة لانعدام الإمدادات والإشباعات النرجسية من الموضوعات الخارجية (الآخرين)، ونتيجة لانعدام العطاء، لا تستشعر الذات إلا الدونية والاضطراب، وبالتالى يتولد لديه مبررٌ سيكولوجيٌ لفقد الآخر ثم إلغائه، ولأن الفقد والإلغاء لا يكفيان، فلا بد هنا من تدمير الآخر، وهذا المبرر مؤداه: أن الآخر مصدر للغدر والخيانة والتهديد، ساعد على ذلك وجود ذات متصارعة ومضطربة، يغلب عليها سيطرة الحفزات الغريزية العدوانية، ومن هنا تنشأ العدوانية والأنانية والتى يكون أساسها الغيرة والحقد والحسد.

ثانياً: السادية والقرآن الكريم

عدوانية الإنسان وساديته تجاه الآخر بدأت مع بداية الخليقة مع ابنَى آدم ﷺ قابيل وهابيل، حين قرب كل واحد قربانه، فتقبل الله قربان هابيل لصفاء نيته، ولم يتقبل قربان قابيل؛ لأنه سخط على حكم الله، فيقول الحق سبحانه وتعالى فى أول جريمة قتل فى التاريخ وأول سادية وعدوانية مدمرة للآخر، حتى ولو كان هذا الآخر هو الأخ، يقول الحق: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣٠].

فأول جريمة قتل سادية جاءت فى القرآن الكريم، قد أفرزها الحقد والحسد والأنانية والنرجسية؛ أى: أن أسباب جريمة القتل هنا كانت نفسية.

فالسادية كمرض نفسى ظهر فى البداية مع بداية الخليقة؛ وبيَّنه الله تعالى فى كتابه العزيز أى قبل ظهور التحليل النفسى بأربعة عشر قرنًا.

ومن هنا بدأت العدوانية والعداوة بين بنى آدم.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [البقرة: ٨٥].

والخطاب لليهود فى قتلهم إخوانهم فى الدين، وطرد بعضهم من ديارهم.

وفى قوله تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢].

* * *

(٢)
أسبقية السمع عن البصر

- لماذا قدم الله سبحانه وتعالى السمع على البصر؟

يقول عز من قائل: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

علم التشريح

أكد لنا علم التشريح أن المخ يتكون من أربعة فصوص:

الفص الأمامي، والفص الجبهي، والفص الصدغي، والفص الخلفي.

وأن الفصوص تحتوى على مراكز الحس المختلفة ومراكز الحركة وغيرها.

وبدراسة مراكز السمع والبصر وجد العلماء أن مركز السمع يقع فى الفص الصدغى للمخ وهو المقابل للأذن، وأن مركز البصر يقع فى الفص الخلفى للمخ.

وإذا ذكر السمع والبصر، قُدِّم السمع وأُخِّر البصر، وهو تمامًا الترتيب التشريحى الداخلى لمراكز المخ.

وذلك أن جهاز السمع يتطور جنينيًا قبل جهاز البصر، ويتكامل وينضج حتى يصل حجمه فى الشهر الخامس من حياة الجنين إلى الحجم الطبيعى له عند البالغين، فى حين لا يتكامل نضج العين إلا بعد ولادته، ويبدأ الجنين بسماع الأصوات وهو فى رحم أمه

وبالتحديد في الشهر الخامس من حياته الجنينية، ولكن لا يبصر النور والصور إلا بعد ولادته، حيث تتطور وتنضج كل المناطق والطرق السمعية العصبية قبل تطور ونضج مثيلاتها البصرية بفترة طويلة نسبياً.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

وقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

***

(٢)

الاكتئاب هو الخسران

﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر : ١ ـ ٣].

مرض القلق والاكتئاب هو مرض العصر الحاضر؛ بل هو مرض كل العصور.

ولقد أقسم الله سبحانه وتعالى على أن جنس الإنسان فى شقاء وخسران مادام بعيداً عن الإيمان بالله.

فالشقاء هنا هو المرض النفسى، هو الخسران، ولكن إذا كان القلق هو مرض العصر فأين الشفاء؟ الشفاء فى نفس سورة العصر فى آية واحدة فقط.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

[العصر : ٣].

فهذه السورة الصغيرة جداً، والتى تعتبر من أصغر سور القرآن الكريم (ثلاث آيات) جاء فيها المرض النفسى، وجاء فيها أيضًا الدواء؛ أى: العلاج النفسى، والذى تركز فى أربعة أدوية: ﴿①إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ② وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ③ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ④ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

فهذه السورة هى ملخص المرض النفسى والعلاج النفسى فى آن واحد.

فكل نظريات العلاج النفسى تهدف إلى تحقيق هاتين الآيتين، لشفاء المريض النفسى.

الفصل السادس

الإنسان فى علم النفس والقرآن الكريم

١ ـ صفات الإنسان فى علم النفس والقرآن الكريم.

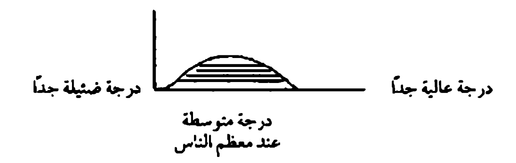
٢ ـ (الإيمان هو إيمان النفس والعقل)، «لا إكراه فى الدين».

(١)

صفات الإنسان فى التقسيم العالمى للأمراض النفسية، والقرآن الكريم

ـ أكد لنا التقسيم العالمى للاضطرابات النفسية والعقلية، الصادر من منظمة الصحة العالمية فى چينيف (التقسيم العاشر ١٩٩٢م) أن إنسان العصر الحديث يتمتع بعدة اضطرابات عصابية (نفسية)، والعصابى إنما يعانى من صراعات داخلية عدة، والتى توقعه فريسة للعديد من الاضطرابات النفسية، تجعله غير قادر على مواصلة صيرورة الحياة بشكل سوى، وقد أصبح من المتفق عليه أن أسباب الأمراض النفسية هى العوامل الوراثية والبيئية معًا.

ـ كما أكد تقسيم الاضطرابات النفسية أن هذه الاضطرابات إنما تتوزع توزيعًا اعتداليًا بين الناس؛ بمعنى: إذا كانت الاضطرابات النفسية، هى الاكتئاب، القلق الهستيريا، الوساوس، السلوك القهرى، الخوف المرضى، فإنها تتوزع بيننا نحن البشر بشكل اعتدالى؛ أى: أن معظم الأفراد يعانون الاضطراب النفسى بشكل متوسط، بينما توجد قلة تعانى المرض بشكل ضئيل، قلةٌ أخرى تعانيه بشكل كبير. ويكون توزيع القلق مثلاً على النحو الآتى:



بحيث يصبح من يملك القلق بدرجة متوسطة (سَوِيًّا)، ولكن من يملك القلق بدرجة عالية (غير سَوِيٍّ)، ومن لا يملكه على الإطلاق (غير سَوِيٍّ).

فلا يمكن أن نتخيل إنسانًا بلا قلق إطلاقًا، فهذا معناه: عدم الخوف على الحياة، المستقبل، السمعة، الأولاد، وهو ما يعرف في علم النفس بالبلادة الانفعالية.

أما من يملك القلق بدرجة عالية جدًا؛ أي: قلق هائم طليق وحاد، من كل شيء، وعلى كل شيء، دون مبرر؛ فهذا هو القلق المرضي، والذي يحول بين التوافق في الحياة، بل يعطل مسيرة الحياة، ويقع صاحبه فريسة للجمود والتخشب الاجتماعي والنفسي.

أما من يملكه بدرجة متوسطة، فإنه يملك قلقًا موضوعيًا، يدفعه إلى التوافق، والتقدم والنجاح والخوف على الحياة والمستقبل، فهذا هو القلق السَّوِيّ اللازم لصيرورة الحياة وتقدمها، فبدون القلق الموضوعي السوي لن يتقدم الإنسان.

- وبنفس الطريقة تتوزع بقية الاضطرابات النفسية عند الناس.

- إذن إنسان العصر الحديث قلق، مكتئب، هستيري، وسواسي، لديه سلوك قهري، ومخاوف مرضية، وسوء توافق، مليء بالصراعات الداخلية، والكثير من اضطرابات الشخصية، كالهلع، والبخل، والتمرد، وجنون العظمة، والجدل، والعصيان، والجحود. (هذا هو وصف علم النفس للإنسان في عالمنا المعاصر وفقًا للتقسيم العالمي للأمراض النفسية).

- ولنذهب الآن إلى علم العلوم «القرآن الكريم» لنرى وصف الخالق العظيم للإنسان:

فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

هذا هو وصف الله الخالق سبحانه للإنسان: يئوس كفور إذا أخذت منه نعمة واحدة من نعم الله عليه، تلك النعم التي لا تعد ولا تحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

أي أن الله قد سخر لنا الشمس والقمر، والليل والنهار، لنسكن فى الليل، ونبتغى من رزق الله فى النهار، والسمع والبصر والأفئدة والمال والبنين، ومع ذلك طُبِعَ الإنسان على الظلم والجحود، ثم نجد صفة أخرى للإنسان، هى التمرد والخصام.

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

وتتوالى صفات الإنسان فى القرآن الكريم، فى الآيات الآتية:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦].

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

ثم يوضح لنا القرآن الكريم الوساوس المرضية عند الإنسان:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦].

كما يوضح لنا القرآنُ الخوفَ المرضى والهلع عند الإنسان:

﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩].

ويوضح أيضًا القرآن تمرد الإنسان وعدوانه ومشاعر العظمة عنده، فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾ [العلق: ٦].

ثم تظهر ملامح الاكتئاب عند الإنسان فى الآية الآتية:

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢].

ثم يظهر القلق واضحًا عند الإنسان فى الآية الآتية:

﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١].

كما يوضح لنا القرآن مازوخية الإنسان (رغبته فى عذاب نفسه من قِبَل آخر، وإن لم يوجد الآخر يعذب نفسَه بنفسه، أو يدعو على نفسه) فى الآية الآتية:

﴿ويدعُ الإنسانُ بالشرِّ دُعاءَهُ بالخيرِ﴾ [الإسراء: ١١].

ثم يظهر بخل الإنسان فى الآية الآتية:

﴿وكانَ الإنسانُ قتوراً﴾ [الإسراء: ١٠٠].

ثم يظهر جدل الإنسان كأحد اضطرابات الشخصية فى الآية الآتية:

﴿وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جدلاً﴾ [الكهف: ٥٤].

ثم يظهر عناد الإنسان وخصامه في الآيتين التاليتين:

﴿أوَ لمْ يرَ الإنسانُ أنَّا خلقناهُ من نُطفةٍ فإذا هوَ خصيمٌ مُبينٌ﴾ [يس: ٧٧].

﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أكفرَهُ﴾ [عبس: ١٧].

ثم تأتى أعراض مشاعر جنون العظمة والفخر والعصيان فى الآية الآتية:

﴿يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّكَ بربِّكَ الكريمِ﴾ [الانفطار: ٦].

والمقصود هنا: كيف يقابل العبد رحمة ربه ونعَمَهُ بالعصيان والتكبر.

ـ ثم أخيراً يأتى حساب الإنسان عند الخالق سبحانه وتعالى فى الآيتين الكريمتين الآيتين:

﴿وأن ليسَ للإنسانِ إلاَّ ما سعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

﴿وكُلَّ إنسانٍ ألزمناهُ طائرَهُ في عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

ـ فإذا كان وصف علم النفس للإنسان بأنه: مكتئبٌ، خائفٌ، هستيرى، وسواس، مضطربُ الشخصية، لديه جحود وجنون عظمة، ومتسرعٌ، وقلقٌ.

فقد كان وصف القرآن للإنسان أوسع وأشمل؛ لأنه علم العلوم، جاء وصف القرآن للإنسان على النحو الآتى:

يئوس كفور، ظلوم كفار، خصيم مبين، وسواسى، هلوع، طاغية، كنود، فى خسر، ضعيف، عجول، قتور، أكثر شيء جدلاً، مغرور.

ـ فالتقسيم العالمى للاضطرابات النفسية، لم يأت إلا ببعض صفات الإنسان، فى

القرآن الكريم، ولعل التقدم العلمى والبحوث فى مجال نفس الإنسان تقودنا إلى معارف أكثر عن الإنسان، كما جاء فى القرآن الكريم، فسبحان الله ولا إله إلا الله، فرغم كل صفات الإنسان التى ذكرها القرآن إلا أن رحمة ربنا وسعت كل شىء، فهو الغفور الرحمن الرحيم، وقد ترك سبحانه لنفس الإنسان حرية الاختيار بين الإيمان والكفر، وكل اختيار له حسابه، وثوابه وعقابه أيضًا، وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

* * *

(٢)

(الإيمان هو إيمان النفس والعقل) ، لا إكراه في الدين،

- يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

أى لو شاء الله سبحانه وتعالى أن يؤمن البشر جميعًا، لأنزل سبحانه آية من السماء، تجبرهم على الإذعان والطاعة، ولكن الله الخالق العظيم لا يريد إيمان الجبر والأعناق، فسبحانه وتعالى يريد إيمان النفس والعقل، إنه يريد قلوبًا مؤمنة، ونفسًا مسلمة، فلا إكراه في الدين؛ أى: أن الإيمان هنا هو الإيمان النفسى العقلى، والذى فيه اختيار مقصود للتسليم بالله الواحد الأحد، رب العالمين، والاعتقاد العقلى فى العقائد.

- وفى ذلك يقول تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

أى لو شاء الله سبحانه ما كفر كافر، ولا جحد جاحد، ولآمن جميع الخلق، ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك، لكونه مخالفًا للحكمة الإلهية، وهو ترك أمر الإيمان إلى الاختيار النفسى العقلى للبشر، ليترتب على ذلك أن يكون هناك حساب (ثواب وعقاب).

والآية الصريحة فى أن الإيمان لا يكون بالإكراه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ثم جاءت آية أخرى تؤكد أن لا إكراه في الدين وأن الإيمان نفسي: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠].

أي أن الإيمان هنا إيمان نفسي، إيمان النفس التي تختار، ولا إكراه للنفس، ومن ثم لا إكراه في الدين.

ـ والنفس المسلمة هي التي تسلم كل أمرها لله سبحانه وتعالى، ومن هنا تأتي الصحة النفسية، فعندما تتحرر النفس من عبودية العباد وتذهب إلى عبودية رب العباد؛ تكون نفسًا متحررة مطمئنة سوية، فالإيمان النفسي لله سبحانه إعزازٌ للنفس البشرية، أما الإيمان للبشر فهو الذل النفسي البشري، فالإسلام لله الخالق الواحد القهار وليس للبشر، كما جاء في إسلام ملكة سبأ، لما قيل لها: ادخلي القصر العظيم الفخم، فلما رأت ذلك الصرح الشامخ ظنته ماءً غمرًا كثيرًا، وشمرت عن ساقيها تظن أنه ماء، قال سليمان ﷺ: إنه قصر أملس، مصنوع من الزجاج الصافي، فلما عاينت هذه العظمة لسليمان، انقادت لحكمه وعرفت أنه نبي كريم؛ فأسلمت، ولكنها أسلمت لمن؟ أسلمت لله الواحد القهار، ولم تسلم لسليمان، بنص الآية القرآنية: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

أي: أنها كانت ظالمة للنفس بالكفر، ثم أسلمت نفسها لله رب العالمين بالإيمان.

ـ وفي قصة موسى ﷺ: أن الذي جاء به موسى ليس من السحر، بل من المعجزات الربانية؛ لأن الفرق بين السحر والمعجزة الربانية: أن السحر هو سحر أعين الناس؛ أي: إنه خداع في الإدراك، بما يعرف في علم النفس بالضلالات، أما المعجزة الإلهية هي تغيير جوهر الشيء، كأن تتحول عصا موسى إلى ثعبان، وهذا ما جعل السحرة يؤمنون، عندما رأوا عصا موسى تتحول بالفعل إلى حية، فقالوا: ليس هذا من السحر، بل معجزة إلهية؛ فآمنوا، ولكن آمنوا لمن؟ لله الواحد القهار بنص الآية القرآنية: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

فالسحرة لم تؤمن لموسى ﷺ، بل آمنت برب موسى، الله الواحد الأحد الصمد، سبحانه وتعالى.

وهذه هي عظمة وحلاوة الإيمان، أن تسلم النفس لله وليس للبشر. ويكون الحكم لله الرحمن الرحيم، العادل الكريم.

يأتى ذل الإنسان من خلال خضوعه لإنسان آخر، فيصبح الذليل عبدًا لإنسان آخر مُذلٌّ له، فسبحان الله هو المعز المذل؛ أى أن ذل الإنسان لنفسه إنما هو اختيار نفسى مرضى، إنها علاقة السيد بالعبد، أو إذا شئت فقل ثقافة العبد فى مقابل ثقافة السيد، وتلك هى العلاقة المرضية فى عالمنا المعاصر، عبودية إنسان لآخر، اعتقادًا أن الآخر مصدر للرزق أو العزة، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

ثم يؤكد المولى سبحانه أن العزة لله جميعًا فى الآية الآتية:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥].

أى: أن العزة والغلبة والقدرة والسلطان لله سبحانه وتعالى، فهو الناصر والمعين، ومن كان معه الله فلن يقهره أحد، و﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

أى من كان يريد عز الدارين، فليعلم أن العزة والقدرة لله عز وجل وحده، لا لغيره من البشر، فمن كان يريد العزة فليعمل بطاعة الله سبحانه، وكذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ويصدق هذا فى قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فمن الذين أذلّهم الله فرعون، الذى طغى وتكبر وكذب بآيات الله: ﴿كَدَأْبِ آلِ

فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤].

فى حين أن الله سبحانه وتعالى أعز امرأة فرعون، التى آمنت بآيات الله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

(هى آسية بنت مزاحم) امرأة فرعون، حين دعت ربها قائلة: يا رب، أنقذنى من كُفْر فرعون وطغيانه، وابْن لى قصراً عاليًا فى جنة الخلد، ونجنى من فتنة فرعون وطغيانه، ونجنى من زبانية فرعون الطغاة المجرمين.

فلقد آمنت امرأة فرعون، ولما علم فرعون بإسلامها أراد قتلها، فدعت ربها أن ينجيها؛ فنجاها الله سبحانه من شر فرعون أكرم نجاة؛ فرفعها إلى الجنة.

ومن الذين أكرمهم الله أيضًا: مريم ابنة عمران، فقال سبحانه: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

أى: عفت عن الحرام، وصانت نفسها. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾. أى نفخ جبريل فى فتحة صدرها، فوصلت النفخة إلى فرجها، فحملت بعيسى ابن مريم. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

أى: آمنت وصدقت بالكتب المنزلة على الرسل الكرام، وكانت من النساء العابدات المطيعات لأمر الله.

فعزة النفس هنا كانت فى عزة الإيمان بالله

- وقد أذَلّ الله قارون عندما بغى وتكبر وطغى، فالله سبحانه وتعالى ذكر لنا قصة الطغيان بالمال ممثلة فى قارون، بعد أن ذكر قصة الطغيان بالملك والسلطان ممثلة فى فرعون الطاغية الجبار، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

- فالكفر بالله فيه ذل للنفس وعذاب للذات البشرية، أما عزة النفس لن تأتى إلا بالإيمان بالله سبحانه وتعالى.

فلم يكن هناك سلطة وجبروت على كوكب الأرض أكثر من فرعون، ولم يكن هناك ثروة تعادل ثروات وكنوز قارون، ولكنْ كلاهما كفر بالله؛ فأذلهما الله، فالسلطة والثروة لم تغر أصحابها بالكفر، فعزة النفس لا تأتى إلا من خلال الأعمال الصالحة للنفس، وفى ذلك يقول تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

[يونس: ٦٢ - ٦٥].

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

* * *

الفصل السابع

القرآن الكريم وأثره على الإيمان

١ ـ أولية القلب على السمع فى الإيمان بالله.

(١)

أولية القلب على السمع فى الإيمان بالله

- إن ديناميات الإيمان تتمركز فى مشاعر وأحاسيس القلب، وليس السمع كمثير حسى، فالسمع كمثير حسى فقط لا يدرك، فالإدراك مرحلة أعلى من الإحساس؛ أى: أن الإدراك هو إحساس مضاف إليه معنى، والقلب هو الذى يعطى المعنى للسمع، وتلك اكتشافات علم النفس فى القرن العشرين، وهى الحقائق التى ذكرها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

والمقصود بالقلب هنا: هو القلب السليم الذى ينير ويهدى إلى الصراط المستقيم، ويقول الحق سبحانه فى ذلك:

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]. أى: قلب نقى طاهر، وسليم هنا معناها: سليم من الشرك والنفاق، وقد نزلت هذه الآية عندما طلب سيدنا إبراهيم ﷺ من الله الصفح عن أبيه، الذى ضل عن سبيل الله، وكان أبوه قد وعده أن يؤمن بالله، فلذلك استغفر له، فلما تبين أنه عدو الله؛ تبرأ منه، ثم طلب من ربه ألا يهينه ولا يذله، يوم يبعث الناس للحساب، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من جاء ربه بقلب سليم.

وفى ذلك يقول عز من قائل: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

أى: خاف الرحمن وأطاعه واتبع أمره دون أن يرى ربه؛ لقوة إيمانه ويقينه، وجاء بقلب طاهر، غير ملوث بالكفر والإلحاد.

ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨].

ونزلت هذه الآية عندما قال أشراف قريش لمحمد ﷺ: إن أردت يا محمد أن نؤمن بك، فاطرد هؤلاء الفقراء من مجلسك، فإنا أشراف قريش وسادتها، إن أسلمنا أسلم الناس، ونحن نأنف أن نجلس مع هؤلاء الفقراء، فَهَمَّ رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فنزلت هذه الآية؛ لأن الله سبحانه أعلم بطهارة قلوب هؤلاء الفقراء، فكانت المفاضلة بين سادة قريش وفقرائها مفاضلة قلوب: أيهما أطهر، ولكن كيف يصل الإنسان إلى القلب السليم؟

الإجابة: يصل بالإيمان بالله، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

إذا كان السمع لا يهدى للإيمان إلا بقلب سليم؛ فالإيمان لا يظهر أيضًا فى القول المعسول، بل في القلب وما بداخله من طهر ونقاء، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

وهنا إشارة: ألا نهتم بما نسمعه من أقوال، بل نهتم بما فى القلوب من إيمان.

ولكن إذا كانت السوية النفسية تأتى من القلب السليم، فمن أين يأتى المرض النفسى؟ يأتى من الضغط النفسى، ويأتى الضغط النفسى من القلب المريض، الذى يسوده الفجور والنفاق والطمع، إذن المرض النفسى يوجد فى القلب المريض المليء بالنفاق وزيغ القلوب، والشعور بالخوف والرعب، والرغبة فى العدوان على الآخرين.

وفى ذلك يقول تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

والخطاب هنا لنساء النبى ﷺ، حتى لا يتلاين فى الكلام عند مخاطبة الرجال، فيطمع الذى فى قلبه مرض؛ أى: الذى فى قلبه فجور وطمع؛ أى: أن المرض هنا فى القلب.

وفي النفاق يقول الحق سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

ويقول تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾

[النساء: ٦٣].

والمقصود بالمرض هنا: هو الفساد في عقائدهم إما شكًا أو نفاقًا، وإما جحدًا أو تكذيبًا، والمرض هنا: هو سكونهم في الدنيا، وغفلتهم عن الآخرة، وفي ذلك يقول المولى سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾

[الكهف: ٢٨].

٢ ـ يأتي الضغط النفسي أيضًا من زيغ القلب؛ أي: اتباع القلب ميوله وشهواته في المعصية؛ أي: سيطرة الرغبات الغريزية الفطرية مثل الجنس والعدوان والسلطان على شخصية الإنسان، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

أي: فأما من كان في قلبه عدول عن الحق، واتباع للهوى، وسيطرة للشهوات، وسيادة مبدأ اللذة على مبدأ الواقع، فيتعلق بالمتشابه منه، طلبًا لفتنة الناس عن دينهم وطلبًا لتفسيره بما يوافق هواه، وسيطرة مبدأ اللذة على مبدأ الواقع واتباعه للشهوات أحد اكتشافات التحليل النفسي، والتي سبق أن ذكرها القرآن في زيغ القلوب.

ثم تأتي تعليمات الخالق لعباده في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

فمن رحمة الله أن علمنا كيف ندعوه سبحانه وتعالى، وبماذا ندعوه، فعلمنا أن ندعوه ألا يصرف قلوبنا عن نور الهداية والإيمان بعد أن هدانا إلى الدين القويم والشرع المستقيم، وأن يمنحنا الثبات على الإسلام.

فكان دعاء محمد ﷺ: «يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك».

٣ ـ ويأتي الضغط النفسي من الشعور بالخوف والرعب (الخوف المرضي، وليس الخوف من خشية الله)، وفي ذلك يقول عز من قائل: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا

﴿الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾

[آل عمران: ١٥١].

أي: تُملأ قلوب المشركين خوفًا ورعبًا وحزنًا؛ جزاءً لكفرهم.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فالخوف والحزن أساس كل الأمراض النفسية، وفقًا لما جاء في التفسير العالمي للأمراض النفسية، الصادر من منظمة الصحة العالمية، في جينيف التقسيم العاشر، ١٩٩٢م.

ولذلك كان مكافأة الإيمان: هو البعد عن الخوف والحزن، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢].

﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١١٢].

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٣].

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

٤ ـ ويأتي الضغط النفسي في الرغبة في العدوان على الآخرين، والقسوة عليهم، وتلك هي سمات الشخصية العدوانية، والتي تميل إلى القسوة والعدوان وتدمير ممتلكات الآخرين، والرغبة الملحة في إيذائهم، والتي تسمى في علم النفس: بالشخصية السيكوباتية (العدوانية)؛ أي: قلب مليء بالقسوة والعدوان.

وجاءت سمات الشخصية العدوانية في القرآن على النحو الآتي:

كان أول عدوان في البشرية هو قتل قابيل أخاه هابيل، فيقول الحق سبحانه: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

أي: زينت له نفسه قتل أخيه هابيل، فخسر وشقى، خسر الدنيا والآخرة، وهذه نهاية قسوة القلب ومرضه أنها تبعدهم عن طاعة الله، وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

فالقاسى القلب، هو أعمى القلب، مطموس البصيرة، وما ينتظر قساة القلوب إلا الهلاك والدمار.

وبعد قتل قابيل أخاه هابيل، بدأ العدوان على كوكب الأرض، وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

أى: اهبطوا من الجنة إلى الأرض، بينكم العداوة، والخطاب لآدم وحواء (أصل البشر) وإبليس أيضًا.

وببداية العدوان على كوكب الأرض، كان لإبليس دورٌ هائلٌ فى بث ونشر العدوان بين البشر من ناحية، وكان للبشر أنفسهم دورٌ أكبر فى نشر العدوان، وذلك ببعدهم عن الإيمان بالله، فأصبحوا فريسة سهلة لشهواتهم، ومن هنا قست قلوبهم للحصول على متاع الدنيا الزائل، وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧].

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٧].

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١].

ومتاع الدنيا القليل الغرور، هو مطلب رغبات الهى الغريزية الفطرية التى تبحث عن الشهوة واللذة والمتاع الآن وفوراً، والتى تسير وفق مبدأ اللذة، دون أى اعتبار للواقع، وإذا سيطرت الهى (الرغبات الغريزية) على الإنسان، أصبح عبداً لشهواته ولذاته، ومن هنا يسيطر العدوان على الإنسان، حصولاً على اللذة والمتاع الآن وفوراً وبأى طريقة، وتنشأ الشخصية السيكوباتية (العدوانية) والتي تريد متاع الدنيا القليل الغرور، دون أى اعتبار لمتاع الآخرة، فما لهم فى الآخرة إلا الخسارة والدمار واكتشافات من هذا القبيل إنما هى اكتشافات التحليل النفسى، إلا أن جذورها فى القرآن واضحة، فيقول الحق سبحانه: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

أى: أنه يريد متاع الدنيا فقط، لسيطرة مبدأ اللذة على مبدأ الواقع، وما له فى الآخرة إلا الخسران، وتلك هى القلوب المريضة والتى حالت بين أصحابها وبين الإيمان؛ حيث اتسمت قلوبهم بالعمى والعدوان والإجرام والقسوة.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ١٢].

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

والمقصود بالمرض هنا: هو العمى النفسى والمرض النفسى، ولا نملك إلا أن ندعو الله سبحانه الدعاء الذى علمه لنا سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

***

الخلاصة

موضوع هذا الكتاب هو : «**الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في علم النفس والتحليل النفسي**»، إنه دراسة للنفس من نوع جديد، كان المرجع الأساسي لنا : هو القرآن الكريم، ووجدنا الكثير من الاكتشافات العلمية والنظريات في مجال علم النفس، توجد أصولها في القرآن، بل إن التقسيم العالمي للاضطرابات النفسية الصادر عن منظمة الصحة العالمية في چينيف، التقسيم العاشر، عام ١٩٩٢م ـ الذى أكد أن أساس الاضطرابات النفسية هو القلق العام، والذى يؤدى (إلى الخوف والحزن)؛ أى : أن الخوف والحزن أساس الاضطرابات النفسية ـ لم يخرج عن أصول هذا الاكتشاف الواردة فى القرآن الكريم.

فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ** ﴾

[فصلت : ٣٠، ٣١].

فلماذا اختار الله سبحانه وتعالى الخوف والحزن دون بقية الأمراض النفسية؟
الإجابة : لأنهما أساس الاضطرابات النفسية كما أكدتها منظمة الصحة العالمية.

ـ وفى الآيتين ٣٠، ٣١ من سورة فصلت، قدم لنا سبحانه وتعالى معادلة الصحة النفسية، فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** ﴾ [فصلت : ٣٠]. فهذا الجزء من الآية هو الطرف الأول من المعادلة، وهو الاستقامة والإيمان، ولكن ما هو الطرف الثانى من المعادلة؟ الطرف الثانى هو : المكافأة والأجر على الاستقامة، والمتمثلة فى البعد عن الخوف والحزن، وهما أساس المرض النفسى.

ـ استخدم القرآن الرمزية فى تفسير أحلام نبى الله يوسف عليه السلام، ولم نكتشف نحن علماء التحليل النفسى أن الحلم يستخدم الرمزية ـ ولا سبيل إلى فهمه إلا بعد فك شفرة الرمزية المستخدمة فيه ـ إلا بعد أربعة عشر قرنًا من نزول القرآن، فالله سبحانه وتعالى علم نبى الله يوسف تأويل الأحلام من قبل نزول القرآن بعدة قرون، ونحن لم نعرف الرمزية وتأويل الأحلام إلا فى أوائل القرن العشرين.

ـ وفى موضوعات الإحساس فى علم النفس بحثنا كثيرًا ـ كعلماء للنفس، وغيرنا من العلماء ـ فى مصدر الحس، وتراوحت الاجتهادات البحثية، منهم من أكد أن مركز الإحساس فى المخ، وبعد فترة أكدت الأبحاث أن مركز الإحساس فى النخاع الشوكى، وأخيرًا اكتشفوا أن للإحساس أعصابًا لها مستقبلات مثبتة فى الجلد.

وهنا فقط بعدما عرفنا أن مراكز الإحساس موجودة فى الجلد، عرفنا لماذا قال الحق سبحانه وتعالى فى عذاب المشركين: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]. وعلة التبديل هنا: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾. إذن فذائقة العذاب موطنها الجلد، والحس موطنه الجلد وما تحت الجلد.

ـ إذن العلم لا يخلق الحقائق، بل يكتشفها عن طريق القراءة والبحث، فخالق الحقيقة العلمية هو الله سبحانه وتعالى، ونحن البشر نحاول اكتشافها علميًا.

وفى موضوع أن المرض النفسى اختيار، والصحة النفسية اختيار، والتى هى فلسفة العلاج النفسى الوجودى، ذلك الموضوع الذى تم اكتشافه، فى القرن العشرين، وجد أن هذا الاختيار الوجودى له أصوله القرآنية، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

فالنظرية الوجودية فى العلاج النفسى إنما تقوم على هذه الآيات، فالوجودية تعنى: أن الإنسان حر، وهو مسئول عن اختياره، وبالتالى عليه أن يدفع ثمن الاختيار؛ لأنه يملك أدوات الاختيار.

ـ تؤكد نظريات علم النفس أنه إذا زادت طموحات الإنسان عن قدراته؛ أصيب بالإحباط والاكتئاب، وقد وجدنا ذلك فى القرآن الكريم، فيقول الحق سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ـ قدم لنا التحليل النفسى أن التكوين النفسى يتكون من ثلاثة أبنية :

(١) الهىّ.　　　(٢) الأنا.　　　(٣) الأنا الأعلى.

وإذا سيطرت الهىّ، التى هى مجموعة الرغبات الغريزية الفطرية، والتى تتبع مبدأ اللذة، ولا تعطى أى اعتبار للواقع، وتتمركز رغباتها نحو الجنس والعدوان والسيطرة، إذا سيطرت على التكوين النفسى للإنسان؛ يكون الإنسان قد كسب الدنيا وخسر الآخرة، ونجد ذلك واضحًا فى القرآن، ففى الآية ٢٠٠ من سورة البقرة، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

أما إذا سيطر الأنا العاقل الراشد، وسعى إلى تحقيق الرغبات الغريزية من جنس وعدوان بشكل شرعى واجتماعى سواء بالزواج، أو السعى إلى الرزق الحلال؛ فبهذا يكون قد اختار السوية وفاز فى الدنيا والآخرة، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية رقم ٢٠١ من سورة البقرة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. أى: أنه كسب حسنات الدنيا والآخرة.

ـ تلك قطوف من معجزات رياض القرآن، وهبها الله لنا سبحانه وتعالى، بفضله ومنته علينا، ما كنا نصل إليها إلا بتوفيق من الله سبحانه وتعالى.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، والحمد لله رب العالمين، الذى أنزل النور المبين وهدانا إلى الصراط المستقيم.

***

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة
إهـــداء	٥
شكر وتقدير	٦
تقديم	٧
الفصل الأول: القرآن الكريم والعلاج النفسي	١١
الفصل الثاني: الإيمان والإلحاد	٢٩
الفصل الثالث: القرآن الكريم وتصنيف الاضطرابات النفسية	٤٣
الفصل الرابع: الإعجاز العلمي للقرآن الكريم فى خلق الإنسان	٦١
الفصل الخامس: الصحة النفسية والقرآن الكريم	٦٩
الفصل السادس: الإنسان فى علم النفس والقرآن الكريم	٧٧
الفصل السابع: القرآن الكريم وأثره على الإيمان	٨٩
الخلاصة	٩٧

رقم الإيداع ١٧٦٥/٢٠٠٦

الترقيم الدولى 3-1503-09-977 - .I.S.B.N

